طه حسين

شجرة البؤس

?!

نحن نضمن لابنك الصغير
مصروفات
جميع أدوار الدراسة
أو
التعليم الجامعى
أو
التعليم فى جميع أدواره
بما فيه الثقافة الجامعية
فضلا عن
رأس مال ينتظره
عند الانتهاء من دراسته
ومستقبل زاهر
اتصل أو أكتب الى

الأنيون

للتأمين على الحياة

٧ شارع فؤاد الأول – القاهرة
١ شارع دبانه – الاسكندرية

هيئة خاصة خاضعة لاحكام القانون رقم ١٥٦ لسنة ١٩٥٠ مسجلة تحت رقم ٤ ست ٤٠٥٤

طه حسين

- ولد طه حسين باحدى بلاد المنيا سنة ١٨٨٩ وتلقى دراسته بالازهر الشريف ثم فى الجامعة المصرية الاهلية ثم فى جامعة السوربون بباريس
- اول طالب منح درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية الاهلية سنة ١٩١٤. ثم نال دكتوراه الآداب من جامعة السوربون سنة ١٩١٨
- عين أستاذا للادب العربى بالجامعة المصرية عند افتتاحها سنة ١٩٢٥ وانتخب عميدا لكلية الآداب عام ١٩٣٢
- عين وزيرا للمعارف سنة ١٩٥٠ فنادى بأن التعليم ضرورى لحياة الامة كالماء والهواء
- شهرته كمفكر حر وكاتب شهير وخطيب مفوه طبقت العالم العربى والغربى .
- كتب نحو سبعين مجلدا فى مختلف أنواع الادب من نقد وابحاث وقصص وتاريخ
- نال من وسائل التكريم اعظمها ومن الاوسمة أرفعها ولكن ارفع وسام يحمله هو مكانته فى قلوب قومه وشعوب الشرق العربى .

طه حسين

شجرة البؤس

الكتاب الذهبى

العدد الثالث عشر - يونيه سنة ١٩٥٣
يصدره نادى القصة

نشر للمرة الأولى فى دار المعارف
وينشر هنـــا باذن خاص . . .

إهـــداء

هذه صورة للحياة فى اقليم من أقاليم مصر آخر القـرن الماضى وأول هذا القرن ، نقلتها من صدرى الى القرطاس أثناء الراحة فى لبنان .

فمن الطبيعى أن أهديها الى هذا البلد الكريم ، اعترافا بما أهدى الى من معروف ، وما أسدى الى من يد .

« **طه حسين** »

- ١ -

فرغ الرجلان من صلاة العصر ، ومما تعودا فى اعقاب الصلوات من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير ودعاء ، ثم تحولا عن مجلسهما الى مصطبة فى ناحية من نواحى الحجرة لا تخلو من ترف ، فهى لم تتخذ من الطين واللبن ، وانما اتخذت من الآجر ، وفرشت بالرخام وألقيت عليها بسط ونمارق ، كذأب البيوت التى كان يسكنها المترفون من التجار وأوساط الناس ، الذين كانوا يجدون شيئا من الكبرياء فى تقليد السادة من الترك . ولم يكد الرجلان يأخذان مجلسهما حتى أقبل الخادم يحمل الى احدهما غليونه الطويل ، وأقبل خادم آخر من ورائه يحمل اليهما القهوة . وكان واضحا ان أحدهما، وهو الذى حمل اليه الغليون ، لم يكن من أهل الاقليم ،وانما كان من أهل القاهرة قد جاء الى الاقليم زائرا لصاحبه ، او

زائرا وتاجرا معا . وقد يقبل من القاهرة الى الاقليم فى زيارته وتجارته مرة أو مرتين فى العام . ثم شرب الرجلان قهوتهما فى أناة وبطء ، لا يقول احد منهما لصاحبه شيئا . وأقبل صاحب الغليون على تدخينه ، وأخرج الاخر من جيبه علبة بيضية الشكل فأمالها على بعض أصابعه ، ثم رفع أصابعه هذه الى أنفه وتنفس تنفسا عميقا ، ثم رد العلبة الى جيبه وأطرق كأنما ينتظر شيئا ، أو كأنما يريد أن ينعم فى تفكير عميق . ولكن صاحبه القاهرى لم يتح له ذلك ، وانما قال له فى أناة وصوت هادىء : ويحك أبا خالد ! أخشى أن نكون قد ظلمنا أنفسنا وأرهقنا هذا الفتى من أمره عسرا .

قال أبو خالد فى صوت لا تظهر عليه العناية بما سمع : وما ذاك أبا صالح ؟

قال ابو صالح : انى لم أر ابنتى قط منذ كان هذا الزواج الا رحمت الفتى وأشفقت عليه . فما رأيت امرأة أقبح من ابنتى شكلا ،ولا أبشع منها منظرا ،ولا أقل منها دعاء للرجال.

هنالك غضب أبو خالد وقال لصاحبه فى شىء من العنف : فانا اجتهدنا لانفسنا واموالنا ، واجتهدنا لهذين الشابين ، ولا علينا بعد ذلك ان يسعدا أو يشقيا ، احدهما او كلاهما . انها ابنتك الوحيدة ، وانه ابنى الوحيد ، وان لك ثروة ضخمة، وان لى تجارة واسعة ، وان بيننا شركة بعيدة المدى ، واخاء قديم العهد ، فلم يكن بد من ان يقترن هذان الشابان ومن أن يصير اليهما هذا المال .

وأظنك فى حاجة قبل ان يتقدم هذا الحديث الى ان تعرف شيئا من امر هذين الرجلين اللذين كانا يتناجيان . فأما أبو صالح فقد كان رجلا من اهل القاهرة ، من هذه الطبقة المتوسطة التى اخذ شأنها يظهر شيئا فشيئا فى أواسط القرن الماضى حين رد الى المصريين شىء من حرية ، وحين اتاحت لهم النهضة المادية شيئا من سعة العيش . وكانت اسرته تعمل

فى التجارة منذ عهد بعيد · نشأ ابو صالح هذا عبد الرحمن، فرأى أباه مصطفى تاجرا ، وتحدث اليه أبوه أنه رأى أباه تاجرا ، وأنه لم يعرف أن اسرته احترفت شيئا غير التجارة · ولكن تجارة الاسرة كانت يسيرة قريبة المدى ، حتى جاء مصطفى أبو عبد الرحمن فقدمها شيئا ، ثم جاء عبد الرحمن هذا فقدمها كثيرا ، وتجاوز بها القاهرة الى الاقاليم البعيدة والقريبة · وكان يتجر فى البن والسكر والارز والصابون ، ولا يكاد يتجاوز هذه الاصناف الى غيرها من العروض · وقد نشأ فى بيت الاسرة « بحى الخرنفش » نشأة قاهرية عادية ، فاختلف الى الكتاب ، وحفظ شيئا من القرآن ، ثم اختلف الى الازهر ووعى شيئا من العلم ، ثم أعان اباه فى التجارة، وتنقل بهذه التجارة فى الاقاليم ، ثم آلت اليه تجارة ابيه فنماها نموا عظيما ·

وكان عبد الرحمن قد اشترى من سوق الرقيق فى القاهرة جارية حبشية ، او جارية زعموا له انها حبشية ، ولكنها كانت سوداء على كل حال · واكبر الظن انها لم تخل من عنصر زنجى قليل او كثير · وقد احسن عبد الرحمن سيرته مع هذه الجارية ، فأعتقها واتخذها له زوجا ، ورزق منها ثلاثة بنين : غلامين ، احدهما صالح وبه كان يكنى ، وكان يعمل معه فى تجارته بعد ان نشأ نشأة ابيه ، والاخر محمد ، وقد وجهه ابوه وجها مدنيا ، فلم يحصل علما ، ولم يمل الى تجارة، وانما كان فتى متعطلا ، كان ضحية من هذه الضحايا التى تكثر فى أوقات التطور والتجديد ، حين تلتقى حضارة قديمة مستقرة بحضارة جديدة طارئة · والثالثة فتاة سماها نفيسة · وقد اراد الله ان يجمع ما كان يمكن ان تتوارثه هذه الاسرة من ناحيتها من قبح الصورة ودمامة الشكل على هذه الصبية البائسة · وقد نشئت هذه الصبية تنشيئا فيه كثير من الترف وكثير من العناية · وكأن عبد الرحمن وامرأته

السوداء قد رفقا بهذه الصبية واختصاها بكثير من العطف لما رأيا من قبح صورتها ودمامة شكلها · وكان استهزاء اخويها بمنظرها البشع وصورتها المنكرة يزيد رفق ابويها بها وعطفهما عليها ، فنشأت الفتاة فى اخلاقها شيء كثير من التعقيد: تحب الترف وتكلف به لانها نشئت عليه ، فأصبح لها طبيعة واسلوبا فى الحياة · وتحس الاشياء احساسا دقيقا جدا ولا سيما حين تتصل بها من قريب او بعيد ، وتتأذى بما يؤذى ومالا يؤذى ، ويخيل اليها ان فى كل حديث يساق اليها او يساق عنها تعريضا بها او محاولة لايذائها · فكانت سعيدة بين ابويها ، شقية بين اخويها وبين الناس ، مضطربة اشد الاضطراب اذا خلت الى نفسها، لا تعرف الى اى الامرين تستقر: أ الى هذا الحب الذى يملؤه الحنان والعطف ، والذى تجده من أبويها كلما خلت اليهما بل كلما لقيتهما ، بل تحس اثاره حين لا تلقاهما ولا تخلو اليهما ، ام الى هذا الازورار الذى كانت تجده من اخويها والتودد المتكلف الذى كانت تجده من الناس حين تلقاهم زائرين للاسرة ، او تلقاهم حين كانت تصحب امها فى بعض زياراتها · والشيء الذى لا شك فيه هو ان اخلاق هذه الفتاة لم تكن مطردة ولا منسجمة ولا ملائمة للمألوف من اخلاق اترابها ، وانما كانت تثب من الرضا الى السخط ومن السخط الى الرضا ، وربما اضطرت الى شيء بين ذلك ليس فيه اطمئنان ولا ثورة ، وانما هو قلق متصل ، وضيق بكل شيء ، واعراض عن كل شيء · وكان هذا كله يزيد عطف ابويها عليها ، وايثارهما لها بالحب والحنان ، حتى كانت من غير شك آثر الثلاثة عند أبيها وأمها ·

ثم امتحنت الاسرة بفقد ابنيها جميعا فى خطوب لا اعرض لها الان ، فأصبحت الفتاة وحدها مركزا لكل ما كان الابوان يملكان من حب وبر ·

وقد ارتحل عبد الرحمن فى بعض شأنه التجارى الى مدينة

من مدن الاقاليم بعيدة عن القاهرة بعدا شديدا ، فى ذلك الوقت الذى لم تكن فيه القطر ولا السيارات ، والذى كان يرتحل الناس فيه على ظهور الدواب او على ظهور السفن التى تشق بهم النيل مصعدة حينا وهابطة حينا اخر . وكان عبد الرحمن لا يسافر الى الاقاليم الا بعد ان يقدم بين يديه طائفة من السفن قد حملت ما شاء الله ان تحمل من عروض التجارة ، حتى اذا بعد عهده شيئا باقلاع هذه السفن وظن انها قد كادت تبلغ غايتها سافر هو من القاهرة سفرا غير قاصد ، وبلغ الغاية قبل ان تبلغها السفن . وهناك يتلقى سفنه ويعمل فى تجارته ، فيبيع ويشترى ، ويأخذ ويعطى ، ويرد سفنه الى القاهرة وقد تخففت مما كانت تحمل ، ولكنها أثقلت بعروض اخرى تحمل من الاقاليم الى القاهرة . وكان هذا كله يضطره الى ان يبقى فى مدن الاقاليم اوقاتا تطول وتقصر ، فلم يكن له بد من ان يتخذ الاصدقاء من عملائه التجار ، ومن ان يتخذ الاصفياء الذين يؤوونه اذا كان فى هذه المدينة او تلك ، والذين يؤويهم حين كانوا يهبطون الى القاهرة لمثل ما كان يرحل له من البيع والشراء . وكان عميله فى هذه المدينة ابا خالد على بن سلام . وكان على كصديقه وعميله تاجرا بعيد التجارة ، نشأ فى قرية من قرى الريف فى مصر السفلى ، وفى اسرة من هذه الاسر التى كانت تتجر بالماشية وتحصل من هذه التجارة مالا عظيما . ثم رأى ابوه سلام ذات يوم ان أهل القرى يستكرهون على امتلاك الارض واستثمارها ، وكان ابغض شىء اليه ان يكون صاحب ارض وزراعة ، يتعرض لما يتعرض له الفلاحون من الظلم والعنف ، ومن القسوة . والشدة ، ومن هذه السياط التى كانت تأكل أجسامهم حين يقصرون مع سادتهم او مع الحكومة ، او حين يتهمهم سادتهم وتتهمهم الحكومة ظلما بالتقصير ، ففر سلام بأسرته وذهبه وفضته الى مصر العليا ، واستقر فى مدينة من

مدنها ، واستأنف فيها حياة التجارة . ولكنه لم يتجر فى الماشية ، وانما اتجر فى البن والسكر والارز والصابون . وقد نمت تجارته ، واستطاع ان يترك لابنه على ثروة ليس بها بأس . وكأن سلاما هذا قد اورث ابنه ما كان يمتاز به من حب الحرية ، وتجنب السلطان ، والاجتهاد فى ألا يخضع لحياة تفرضها عليه القوة او النظام فرضا . فقد شب على فرأى الحكومة تريد ان تستكره الناس على ان يعملوا فى الجيش ، فلم يتحرج من ان يطيح ابهامه ، حتى اذا تقدم للفرز رد لأنه ليس صالحا للخدمة العسكرية .

وولد له ابنه خالد ، فدفعه الى الكتاب كما دفعه ابوه هو الى الكتاب . ولكنه رأى الحكومة تريد ان تستكره الناس على ان يتعلموا فى المدارس النظامية ، وكان يرى هذه المدارس اثما من الاثم وزورا من الزور ، فهرب ابنه من المدينة وجد فى تهريبه حتى علمه التعليم الموروث ، فحفظه القرآن جالسا على حصر الليف . ونزهه عن هذه المدارس التى لا يتعلم الصبيان فيها شيئا ، وانما يلوون السنتهم بالتركية وبلغة أخرى يسمونها لغة الفرنسيس . وكان على يكره الترك كرها شديدا ، لا يتصور التركى الا ظالما غاشما ، لا يعرف عدلا ولا دينا ولا قانونا ولا احتشاما . وكان يكره الفرنسيس كرها شديدا ، يذكر ما كان الناس يتحدثون به عنهم من الشر ، ولكنه كان يحب الدنانير الفرنسية ويؤثرها على غيرها من النقد ولا يكاد يجتمع له شىء من ذهب او فضة الا استبدل به دنانير نابليون .

وقد تقدمت السن بابنه خالد حتى كاد يبلغ العشرين . وهو لم يصنع شيئا الا انه حفظ القرآن ، وجعل يعمل مع ابيه فى تجارته يقبل عليها حينا وينصرف عنها احيانا ، ويؤثر الاختلاف الى المساجد يشهد فيها الصلوات ويسمع فيها للشيوخ والوعاظ ، فاذا كان الليل اختلف الى مشايخ الطرق

فشاركهم فى حلقات الذكر . وكان ابوه لا يكره منه هذا ، وانما يرى فيه طاعة وتقوى ، وكان يجتهد فى ان يحبب الى ابنه طريقة بعينها هى التى اتخذها لنفسه طريقة . وحمل صديقه القاهرى عبد الرحمن على ان يأخذ بها العهد عن شيخه وقد وفق على من ذلك لما أراد ، فأصبح ابنـــه خالد يتعصب لشيخه وطريقته اكثر مما يتعصب للتجارة ، حتى اشـفق الشيخ نفسه على هذا الشاب ان يغرق فى التصوف وينتهى الى الانجذاب ؛ فقال لابيه ذات ليلة بمحضر صديقه عبـــد الرحمن قبل ان يقيم الذكر بقليل : يا على ، زوج ابنـــك ، وليعنك على ذلك عبد الرحمن ، فانى اخشى عليه الولاية وهو لم يخلق لها . ثم تلا الاية الكريمة : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

وانصرف الصديقان عن الشيخ بعد ان تفرقت حلقة الذكر ، لم يقل احدهما لصاحبه شيئا فى شأن هذا الامر الذى صدر من الشيخ الى على ان يزوج ابنه ، والى عبد الرحمن ان يعينه على هذا التزويج . وراح على الى اهله ، فلم يتحدث اليهم بشىء وانما اتم حياته العاملة كما تعود ان يتمها فى كل يوم بركعتين كان يركعهما قبل ان يأوى الى مضجعه ، وبآية الكرسى التى كان يتلوها اذا استقر فى فراشه . والتقى الرجـــلان حين نشرت الشمس رداءها الرقيق الرقراق على الارض والبست منه المدينة حللا رائعة مشرقة ، فحيا على صاحبه ، وســـأله عن ليله كيف قضاه ، وعن نهاره كيف يريد ان يقضيه . واقبل الخادم يحمل القهوة فشرباها فى رفق وبطء وصمت يقطعه حديث نزر يسير . ولكن عليا اقبل على صديقه فجاءة يسأله : ماذا فهمت من الامر الذى اصدره الينا الشيخ قبل أن يقيم الذكر ؟

قال عبد الرحمن متضاحكا : فهمت انه يخشى على ابنـــك

من حياته هذه التى يحياها ، ويأمرك بتزويجه لينصرف الى الدنيا عن الاغراق فى امر الدين لانه لم يخلق ليكون شيخا ، وانما خلق ليكون تاجرا مثلك ، وفهمت انه يكلفنى معونتك على ذلك ، وانا من هذه المعونة عند ما تريد .

قال على : معونتى على ماذا ؟ ومعونتى بماذا ؟

قال عبد الرحمن : ما أدرى ، ولكن للشيخ اشارات لاتفهم عنه غالبا . ولولا انى اشفق عليك لسألتك : أفى حاجة انت الى المال ؟

قال على وهو يضحك : وهل حال مثلى تخفى على مثلك ؟ أترانى قصرت فى بعض حقوق التجارة فأجلت لك او لغيرك حقا ؟ بل اتراك احسست منى حاجة الى التأجيل والمهلة ؟

قال عبد الرحمن : فهذا ما سألت عنه نفسى منذ الليلة . وان كرام الناس مثلك ليعنفون بانفسهم اشد العنف حتى لا يظهر احد على ما يحبون ان يخفوا من الامر . وقد عرفت ما بينك وبينى من الود والاخاء ، فأنا عند ما تحب من المعونة ان احتجت اليها فى تجارتك او فى تزويج خالد ، فان خالدا عندى بمنزلة ابنى رحمهما الله .

قال على : بارك الله عليك فى مالك وولدك ! .. ولــكن افهمت معنى الاية التى تلاها الشيخ ؟ قال عبد الرحمن : لم افهمها ، ولكنى قدرت ان الامانة هى هذه الولاية التى يتعرض لها خالد على حين قد خلق للتجارة والعمل فيما نعمل فيه من أمور الـــدنيا . وما ينبغى أن نتحرى الدقة حين نسمع شيوخنا يتحدثون او يتلون القرآن ويروون الحديث ، فان لهم آفاقا لا نبلغها . ولو قد فهمنا عنهم كنه ما يريدون لــكنا مثلهم اساتذة وشيوخا ، وانت تعلم انه لم يؤذن لنا فى شىء من ذلك قال على : لأراجعن الشيخ فيما أراد اليه .

وأنفق الصديقان يومهما كما تعودا ان ينفقا ايامهما . فلما صليت العصر وشربت القهوة وكان التدخين والنشوق ، سعيا

الى الشيخ فأقاما عنده بين التلاميذ والمريدين ما شاء الله ان يقيما ، وعلى يهم ان يراجع الشيخ فيما سمع منه ولكنه لا يجرؤ حتى اذا نودى لصلاة المغرب التفت الشيخ الى على باسما وقال له : يا على ، زوج ابنك وليعنك على ذلك عبد الرحمن ، فانى اخشى عليه الولاية التى لم يخلق لها ، ثم تلا الاية الكريمة، وهم على ان يسأله ، ولكنه نهض فاستقبل القبلة واقام الصلاة وصلى من خلفه تلاميذه ومريدوه ٠

وكان الشيخ اذا اقام صلاة المغرب لم يفرغ لاحد بعدها ، وانما يمضى فى تسبيحه وتحميده حتى يتقدم الليل ، فيقيم الصلاة الاخرة ويمضى فى تسبيحه وتحميده ساعة تطول او تقصر حسب ما يكون من اقامة الذكر او لا يكون ، ولكنه على كل حال لم يكن يخلص لاصحابه الا فى ساعة متأخرة جدا من الليل ٠ وقد حضر الصديقان مع شيخهما صلاة المغرب والعشاء وطرفا غير قصير من تسبيحه ودعائه ، ثم انصرفا ولم يستطع على ان يراجع الشيخ فى شىء ، وانما عاد الى اهله مشغولا كثير التفكير ، ولكنه على ذلك لم يتحدث اليهم فى شىء، بل ركع ركعتيه وأوى الى مضجعه فتلا آية الكرسى وترك نفسه للنوم ٠ ثم اصبح من غده كما اصبح من امسه حائرا يسأل نفسه عن هذه المعونة التى طلبها الشيخ الى عبد الرحمن ، ويؤكد بينه وبين نفسه انه سيراجع الشيخ لا محالة ليعرف منه ما اراد ٠ وقد اقبل الصديقان على شيخهما فصليا معه المغرب والعشاء ، ومضيا معه فى تسبيحه وتحميده ودعائه ينتظران حلقة الذكر ٠ ولكن الشيخ التفت فجاءة الى الصديقين واعاد على على للمرة الثالثة مقالته وتلا عليه الاية ٠ وهم على ان يسأله ، ولكن الشيخ قال باسما : سبحان الله ! ثم التفت الى عبد الرحمن وقال : وما شأن نفيسة ؟! ثم امر باقامة الذكر، وقد فهم عنه الصديقان ولم يستطيعا مع ذلك ان يقولا له شيئا ، او يسألاه عن شىء ٠ على انهما لم يعودا صامتين بعد

ان تفرقت الحلقة ، وانما قال عبد الرحمن لصاحبه : افهمت الان هذه المعونة ؟ قال على : قد فهمتها منذ الليلة الاولى ، ولكنى لم اكن اقطع بذلك ولا اجرؤ على تقديره فضلا عن ان احدثك فيه ٠ قال عبد الرحمن : فان هذا الخاطر لم يخطر لى ، وما كنت اعرف ان الشيخ يعلم ان لى ابنة ، وان اسمها نفيسة قال على : فان الشيخ لا يخفى عليه شىء من امر تلاميذه ومريديه ولكن ما رأيك فيما اصدر الينا من امر ؟ قال عبد الرحمن : سنستخير الله وسنتحدث اذا كان الغد ٠ ودخل على على اهله فرحا مسرورا يقول : ابشرى يا ام خالد ، فستزورين القاهرة بعد قليل ٠ قالت ام خالد مبتهجة : شيئا لله يا اهل البيت ٠ ولكن زوجها كان قد استقبل القبلة ليركع ركعتيه ٠

-٢-

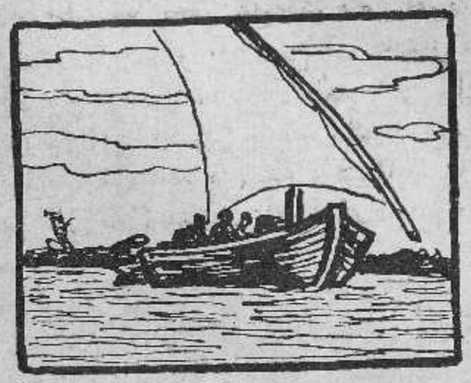

وكان الحديث بين الصديقين أثناء قهوة الصباح قصيرا سريعا حاسما ، بدأه على حين سأل صاحبه هل استخرت الله · قال عبد الرحمن : صدق الله العظيم · « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلا مبينا » · وقد أرتنى الاحلام شيخنا غير مرة يتلو على هذه الآية ، فأفقت وأنا واثق ان الخيرة فيما اختاره الله ·

قال على متهللا : فابسط يدك لنقرأ الفاتحة · قال عبد الرحمن : مهلا أبا خالد ! فان بيننا وبين ذلك أمورا ثلاثة · قال على : وما هى ؟ قال عبد الرحمن : أما أولها فأن تعلم أن ابنتى قبيحة الشكل بشعة الصورة ، لا تكاد تقع عليها العين الا انصرفت عنها مشمئزة ، وانحرفت عنها نافرة · وأما الثانى

فهو أن لابنك أما كما أن له أبا ، ويجب أن تعلم من هذا الامر كله مثل ما نعلم ، ويجب ان تنقل اليها فى أمانة ما حدثتك به عن قبح ابنتى · وأما الثالث فهو أنك لن تتزوج ابنتى وانما سيتزوجها خالد ، فيجب أن يعلم من هذا الامر ما نعلم ويعرف أن الشيخ لا يهدى اليه عروسا رائعة ، وانما يبتليه بمحنة مروعة ·

قال على وهو يضحك : أو ليس قد أمر الشيخ ! أو ليس قد تلا عليك الشيخ هذه الآية فى أحلامك ، فأينا يقدر على أن يخالف أمر الشيخ ! وأينا يقدر على أن يختار لنفسه غير ما اختار له الله ! ثم نهض من فوره فدخل على أهله ، وعاد بعد ساعة أشد ما يكون سرورا وابتهاجا ، ثم سأل عن ابنه ، فالتمس له فى المساجد حتى جىء به بعد حين · فلما أنبأه النبأ ابتسم وقال فى شىء من الاستحياء : وما دام شيخنا قد أمر بذلك فهو الخير ·

ولم تمض الا أيام حتى كانت سفينة من السفن تهبط بعبد الرحمن وأصهاره الى القاهرة ، ثم لم يمض بعد ذلك الا شهر أو أقل من شهر حتى كانت سفينة من السفن تصعد بعلى وأسرته الى الاقليم وقد زاد عددها حتى بلغ الاربعة ·

-٣-

وليس من شك فى أن أم خالد أذعنت لامر الشيخ طائعة ، وفى ان خالدا انفذ أمر الشيخ راضيا مغتبطا ٠ ولكن ليس من شك أيضا فى أن أم خالد لم تكد ترى نفيسة حتى ارتاعت والتاع قلبها التياعا شديدا ٠ ولولا أنها كانت قوية النفس حازمة ضابطة لامرها ، لاظهرت من روعها ولوعتها ما كان خليقا أ نيؤذى الفتاة وأمها ويلغى أمر الشيخ الغاء ، ولكنها حزمت أمرها وكظمت غيظها وأوت بعد قليل الى غرفتها فبكت ما شاء الله أن تبكى ، واستقبلت زوجها كأسوأ ما يستقبل الزوج ، وقالت له فى نفسه وفى شيخه أسوأ مما كان يمكن أن يقال٠ ولكن زوجها لقى هذا كله باسما يتلو الآية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ٠٠ » فاذا أحفظته استحال ابتسامه ضحكا وقال : ناقصات عقل ودين ٠ ولكنها أكثرت عليه حتى ضاق بها آخر

الامر ، ولا سيما حين زعمت له أنه لا يزوج ابنه طاعة للشيخ ولا اذعانا لارادة الله ، وانما هو أمر دبر بليل ٠ هو لا يزوج ابنه من ابنة صاحبه ، وانما يزوج نفسه من ثروة صاحبه ، فهو يضحى بهذين البائسين ليشارك فى هذه الثروة الضخمة والمال العريض ٠ هنالك نهض على فى تؤدة واستقبل امرأتهفى هدوء وقال لها فى صوت يريد ان يرتفع ، ولكن صاحبه يكرهه على الانخفاض : تخيرى ، فاما أن يعقد هذا الزواج واما انتفصم عقدة الزواج بينك وبينى ٠ فأقسم لنعودن الي مدينتنا أربعة، أو لتعودن الى أهلك وحيدة ٠

سمعت أم خالد هذا النذير فوجمت له وجـــوما طويلا ٠ والغريب أنها جعلت تلتمس عند عينيها الدموع فلا تسعفانها بشىء ، وتلتمس عند قلبها الثورة فلا يسعفها بشىء ، وتلتمس عند لسانها كلمة ترد بها على زوجها بعض ما قال فلا يسعفها بشىء ، فلما طال عليها ذلك نهضت لتصلح من شـــأنها ٠ وانصرف عنها زوجها ثم عاد اليها بعد ساعة فرآها كعهده بها هادئة حازمة ، فى وجهها ابتسامة ضئيلة حزينة ٠ قال على لامرأته متضاحكا : أرضيت ؟ قالت : لقد سمع تأبى دائما يقول كلما لقى مكروها من الامر : رضينا بقضاء الله وقدره ٠ ولكن ثق بأنك ستندم على ما أنت مقدم عليه من الامر ، وبأنك ان اتممت هذا الزواج لم تزد على أن تغرس فى دارك شجرة البؤس ٠

- ٤ -

ولم تحاول أم خالد ان تصرف ابنها عن هذا الزواج ولا أن تنفره منه • وما كان لها أن تفعل ، فطاعة الزوج واجبة ، وطاعة الآباء بر بهم • وقد أطاعت زوجها كارهة ، فما ينبغي لها أن تثير ابنها على أبيه ولا أن تغريه بالعقوق • على أنها نصحت لابنها آخر الامر ، فلم تبالغ فى الثناء على خطبه ، ولم تزعم له انها رائعة الحسن بارعة الجمال ، وانما كانت تتحدث اليه بأن الشباب لا ينبغى أن يلتمسوا عند أزواجهم جمالا ولا حسنا ، فان الجمال فتنة والحسن محنة ، ويوشك الذى يلتمس الحسن والجمال عند زوجه أن يعرض نفسه لكثير من المكروه • انما يلتمس الشاب عند امرأته قرينة تؤنس وحدته ، وأما ترزقه الولد ، ومدبرة لبيته ومربية لبنيه • والواقع من الامر أن ابنها كان يسمع لها معرضا عن أكثر ما كانت تقول : فهو

لم يكن يفكر فى جمال ولا فى حسن ، ولم يكن يحفل بالولد ولا بتدبير امر المنزل ، ولم يكن يشفق من وحدة ولا يبتغى أنيسا ، وانما كان يطيع امر الشيخ ليس غير ، وقد آمره الشيخ أن يتزوج فهو يتزوج ، فأما ما بعد ذلك فله وقته وابانه •

وكان الفتى منذ هبط الى القاهرة قليل العناية بالخطبة وأحاديثها ، والزواج وما كان يعد له ، منصرفا أشد الانصراف الى هذه المساجد الكثيرة التى استقر فيها الاولياء وآهل البيت يلم بأحدها فلا ينصرف عنه حتى يلم بأحدها الآخر ، قارئا فى هذا مصليا فى ذاك مطوفا ومتمسحا على كل حال بما فيها من المشاهد والمقامات ، مستمعا لما كان يلقى هنا وهناك من دروس التفسير والحديث ومن الوعظ والارشاد ، منتفعا بما كان يسمع ، مدخرا فى قلبه من هذا كله الاعاجيب • ولم يكن النهار يكفيه ليرضى حاجته من هذه الزيارات ، فقد كان ينفق فيها شطرا من الليل ، ولا يعود الى أبويه الا حين يهمان ان يأويا الى غرفة نومهما • وقد خطر للفتى هذا الخاطر العجيب ، وهو أن يختم القرآن فى طائفة من هذه المساجد الكبرى ، فختمه فى مسجد سيدنا الحسين ، ومسجد السيدة زينب ، ومسجد الامام الشافعى ، ومسجد الامام الليث • وكان واثقا بأن ذلك كله أدعى الى أن يبارك الله فى حفظه للقرآن • وكان يتحدث بهذا الى أبيه فيرضى ، ويتحدث به الى أمه فتبتسم • على أنها تعلقت به ذات يوم وأرادته على أن يزيرها أهل البيت ، فهى لم تستبشر بالهبوط الى القاهرة حين أنبأها زوجها به الا لانها ستزور فيها أهل البيت • ولكن الفتى لم يستجب لامه ،وانما انصرف الى زياراته الطويلة ، وأحال أمه على ضيفها يزيرونها ما تشاء من مساجد الاولياء ، فلم يكن يرضى عن زيارة النساء لهذه المساجد والمشاهد ، ولم يكن يعجبه تشبثهن بالقبور وتمسحهن بالاضرحة والحاحهن على الاولياء فيما كن يطلبن

اليهم من قضاء الآراب وتحقيق الآمال ، انما كان يسمو الى بركة خير من هذا كله وأبقى · كانت فيه نزعة روحية تريد أن تمتاز ، لولا أنه لم يتهيأ لهذا الامتياز بما ينبغى له من العلم والمعرفة · وكان يجد فى سعيه وكده ، ويتحدث الى نفسه بأن يوما من الايام قد يقبل يظهر فيه الشيخ على ما يبذل فى سبيل العلم والمعرفة من جهد ، فيلقى اليه بفضل من علمه اللدنى الذى لا تسقط منه قطرة ضئيلة فى قلب من القلوب الا ملأته حكمة ونورا · وفى ذات يوم أو فى ذات ليلة ألقى اليه ابوه هذه الكلمة التى لفتته الى انه لم يهبط الى القاهرة لما هو فيه من سعى وجد ، وانما هبط اليها لشىء اخر · قال له أبوه: اذا كان الغد فلا تخرج حتى ألقاك · قال الفتى : ولماذا ؟ قال على : لانى فى حاجة اليك · قال الفتى : انك فى حاجة الى اذا صليت العصر ، أليس كذلك ؟ قال على : بل أنا فى حاجة اليك اذا صليت الصبح · ثم انصرف عنه الى بعض الامر · وكان على قد قدر فى نفسه أنه اذا لم يستوثق من ابنه أول النهار لم يظفر به الا حين يتقدم الليل · فلما كان الغد صحب ابنه فى زيارته لبعض المساجد ، واستمع معه لبعض الدروس ، وقرأ معه شيئا من القرآن ، وعاد به الى البيت بعد أن صليت الظهر فلم يفارقه حتى تم عقد الزواج ·

وأدخل الفتى على زوجه بعد أيام · فلم ينكر شيئا ولم ينحرف عن شىء ، وانما سعد بامرأته السعادة كلها ، واستيقن فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين ربه ان امرأته بارعة الحسن رائعة الجمال ، خفيفة الروح ، ساحرة الطرف ، خلابة الحديث · وكان كثيرا ما يفزع الى الله فى أعقاب صلواته ضارعا اليه ألا يجعل امرأته فتنة له تصرفه عما كان يجد فيه من التقوى والتماس المعرفة · ومع ذلك فقد أنفقت أمه ليلة ساهرة مملوءة بالشقاء ، ونهارا طويلا حافلا بالآلام ، فقد كانت تخشى

أن ينفر الفتى من زوجه متى رآها ، وأن يزداد منها نفورا متى أشرقت الشمس على وجهها الدميم · وكانت تصور لنفسها ما سيجد ابنها من الوحشة وخيبة الامل فيتفطر قلبها حزنا · وكانت تصور لنفسها ما قد يظهره الفتى لامرأته البائسة وأبويها الخيرين من الاشمئزاز والنفور ، فتمتلىء نفسها ذعرا · ولكنها رأت ابنها سعيدا موفورا ، ورأت امرأته هانئة محبورة ، فاطمأنت أول الامر ، ثم لم يلبث اطمئنانها ان استحال الى شعور غريب ، فيه شىء من خيبة الامل فى ابنها ، فقد كانت تحسب أن له حظا من ذوق ، وقد كانت تظن أن له نصيبا من نخوة ، وقد كانت تقدر أنه سيثور غضبا لذوقه الذى امتهن وحفاظا لنخوته التى لم يحفل بها أحد من مزوجيه · ولكنها ترى ابنها راضيا ناعم البال · كأنه الشاة تنعم بما يقدم اليها من علف فتمرح وتصيح ، وهى لا تقدر أن السكين قد هيىء لذبحها فى بعض المكان ، ومهما يكن من شىء فقد كظمت أم خالد حدة آلامها وخيبة آمالها ، وصبرت على ما كانت ترى من سخرية زوجها بها ، ومن نظراته تلك التى كان يلقيها اليها من وقت الى وقت كلما رأى ابنه مسرورا محبورا ، كأنه يقول لها: أرأيت أنك كنت واهمة كل الوهم ! ألا تعرفين أن كرامة الشيخ لا يعجزها شىء ! انها تحول القبح جمالا ، والدمامة حسنا ، والبغض حبا · والنفور فتونا · كظمت أم خالد هذا كله فى نفسها ، ولكنها لم تكن من القوة وشدة الايد بحيث تستطيع أن تحتمل بعض ما امتلأ به قلبها الضعيف ، فلم تمض على زواج ابنها أيام حتى أحست شيئا من خمود ، وحتى أبغضت القاهرة أشد البغض ، ورغبت الى زوجها فى العودة الى المدينة فلما بلغ تدارها أوت الى غرفتها · وطالت اقامتها فى هذه الغرفة ، ولكنها لم تخرج منها الا الى القبر ·

- ٥ -

وكان على يحب امرأته أشد الحب ، ويؤثرها أعظم الايثار ، لا يعدل برضاها شيئا ، ولا يدخر فى سبيله جهدا. ولم تعرف أم خالد أن زوجها قد خالف عن أمرها أو تنكر لها أو خيب لها أملا أثناء هذه الاعوام الطويلة التى قضتها عنده ، بل لم تعرف منه الا برا وعطفا عليها وفناء فيها . ولولا ان الشيخ أمر بهذا الزواج المشئوم لما صمم عليه ولا ألح فيه ولنزل فى أمره عند ارادة امرأته ، ولكنها عرفت حين تم هذا الزواج على كره منها وأحرى ألا ترد له كلمة .

ولست أدرى أكانت خيبة أملها فى زوجها أشد عليها من خيبة أملها فى ابنها . ولكن الشىء الذى ليس فيه شك هو أن هذه المرأة البائسة قد فقدت فى وقت واحد ثقتها بالزوج وثقتها بالابن ، واستحيت من نفسها أن يكون سلطانها على زوجها قد ضعف الى هـــذا الحد ، واستحيت من نفســـها ان تقدم الى جاراتها وأصدقائها فى المدينة هذه الهدية المنكرة التى أهديت الى ابنها . ولعلها كانت ســـعيدة بهذا المرض الذى

اضطرها الى غرفتها وحال بينها وبين استقبال الزائرات وقد جئن يهنئنها بما كانت تحدث نفسها به ، وبما تحدث كل أم نفسها به ، من الفرح بابنها يوم تزف اليه عروس صالحة بارعة الجمال كثيرة المال . أعفيت من هذا كلـه ، ولم تستقبـل من الزائرات الا هذه الآلام المبرحة التى لزمت غرفتها ليلا ونهارا وهذه الحمى الناهكة التى كانت تزورها وجه النهار وآخره . وكان على أشقى الناس بهذا المرض وأشدهم به ضيقا ، ولكنه لم يكن يقدر أنه سينتهى بامرأته الى الموت، ولم يقدر ان اصراره على هذا الزواج كان مصدرا لهذا المرض أو كان مصدرا من مصادره . ومع ذلك فقد أحس ذات يوم أن امرأته فى آخر لحظة من لحظات الدنيا وأول لحظة من لحظات الاخرة ، فجزع لذلك جزعا شديدا كاد يخرجه عن طوره ، لولا أنه كان مؤمنا حقا. وقد أقبل على امرأته يستغفرها ما يمكن ان يكون قد قدم اليها من خطيئة أو جنى عليها من ذنب ، ويسألها وصوته يرتجف ودموعه تغمر لحيته أن تدعو الله له بخير ليعلم أنها عنه راضية قالت فى صوت نحيل ضئيل : ليكن مرضى وموتى كفارة عما جنيت بتزويج ابننا من هذه الفتاة . قال على وقد كاد صوته يحتبس فى حلقه : فانه أمر الشيخ . قـــالت : وليكن مرضى وموتى كفارة عن الشيخ أيضا .

وقد عمر على بعد موت امرأته عمرا طويلا كما ســـترى ، ولكنه لم ينس أم خالد فى يوم من أيامه ، ولم يقـــدر قط أن الموت قد فرق بينه وبينها . وانما استيقن دائما أنها زوجـه وأنها تعيش معه فى داره . وأنها قد اتخذت لنفسها من قلبه مكانا استقرت فيه فلا تبرحه . وأكثر من هذا ان عليـــا لم يستطع حياة الرجل الاعزب ولكنه لم يقدم على الزواج حتى أمره الشيخ أو أمر ابنه بذلك ، فقال لخالد ذات ليلة : يا خالد زوج أباك كما زوجك ، فانه لا يقدر على حياة الرهبان .وأذعن على لهذا الامر راضيا ، فقبل من ابنه الزوج التى اختارها له بأمر الشيخ ، كما قبل ابنه منه الزوج التى اختارها له بأمر الشيخ .ثم اختلفت الخطوب على أبى خالد فاستكثر من الزوجات

واستباح ما رخص الله فيه للمسلمين من تعدد الزوجات ٠وكان يتحدث الى الناس فى شىء من التبجح الذى كان يزداد كلما تقدمت به السن بأن الله قد أذن للمسلمين فى أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وأنه مصمم على أن يأخذ حقه من ذلك كاملا ٠ فيمسك فى داره أربع زوجات لا ينقصن لان هذا حقه ، ولا يزدن لان الله حرم هذه الزيادة ٠ ومع ذلك فلم يكن يمسك فى داره الا ثلاث زوجات ، فاذاسئل عن الرابعة قال وعلى ثغره ابتسامة حزينة : وأم خالد ماذا تصنعون بمكانها منى ؟ وكان على قد احتجز غرفة أم خالد كما تركتها لم يغير منها شيئا ، وكان حريصا على العدل بين نسائه فكان يقسم لكل واحدة منهن ليلة من لياليه ، فاذا أعطى كل واحدة منهن ليلتها أوى الى غرفة أم خالد فأنفق فيها ليلة زوجه الاولى مصليا قارئا داعيا واهبا هذا كله من جهده الصالح لام خالد ، لا يفارق غرفتها ولا يتحول عن القبلة ولا ينقطع عن الصلاة والدعاء الا أن يغلبه الاعياء والنوم ٠ وكثيرا ما أقبل خادمه محمود يحمل اليه فهوته بعد أن تشرق الشمس فى غرفة أم خالد ، فيراه مكبا على وجهه قد أدركه النوم فى سجوده فلم يتحول ، أو يراه مضطجعا فى مكانه الذى كان يصلى فيه قد أدركه اعياء فنام حيث هو ولم يرد أن يأوى الى الفراش ٠

ولم تزل هذه حالة حتى أدركته الشيخوخة المضنية ٠ونظر ذات يوم فاذا هو أعزب لا زوج له ، قد تفرق عنه نساؤه بالطلاق أو بالموت ، وقد كثر بنوه وبناته وحفدته ، وتفرقوا عنه لكل منهم أسرته وأهله ٠ وثاب هو الى غرفة أم خالدفاقام فيها لا يريم ، يختلف اليه خادمه بما يحتاج اليه ، ويختلف اليه أبناؤه وبناته يزورونه وهو ملازم لهذه الغرفة ، لانه قد نذر ان أقدره الله أن يموت حيث ماتت أم خالد٠ وقد أقدره الله فمات حيث ماتت أم خالد ٠ ونظر بنوه فى وصيته ، فاذ هو يأمر بنيه بأن يدفنوه مع أم خالد ، وأن يفعلوا بعد ذلك ما يشاءون ، فهم يعرفون ما يأتون من الامر وما يدعون ، وهم يعلمون أن لله عليهم حقوقا ، وانه سيسألهم عن هذه الحقوق٠

وقد رزق خالد من زوجه صبية سماها سميحة ، وأراد الله أن تكون هذه الصبية هى التى تكشف الغطاء عن عقل ابيها وذوقه ونفسه ، وتحمل كثيرا من أهله وذوى مودته ان يعجبوا من هذه الحكمة البالغة ، ومن هذه الاسرار الغامضة التى تكتنف الناس فى كل ما يأتون وما يدعون ، وفى كل ما يضطرون اليه من الامر ٠ فقدكانت سميحة آية فى الجمال ، ولا سيما حين تقدمت بها السن شيئا ، واصبحت صبية تدرج فى البيت ٠ لم يحفل خالد بمنظرها اول الامر ، شغل عن ذلك بشعور الابوة وحنان الزوج ٠ الا انه ذات يوم اخذ ابنته بين ذراعيه فضمها اليه وقبلها ، ثم نظر فى وجهها فأطال النظر ، ثم التفت الى المرآة فنظر الى وجهه واطال النظر، ثم التفت الى امرأته فالقى عليها نظرة خاطفة ، ثم وضع الصبية على الارض وقال لامرأته فى صوت يقطعه ضحك عال مر : هذا غريب ! من أين لهذه الصبية هذا الجمال ؟ ليس وجهى بالرائع ، وان وجهك لبشع ، فمن اين لها هذا الجمال ؟! ووقعت هذه الكلمة من قلب نفيسة موقع الخنجر حين يطعن

به عدو عدوا ، فلم تقل شيئا ، وانما اجهشت بالبكاءساعة، ثم اوت الى غرفتها فلزمتها اياما · ولكنها منذ ذلك اليوم احست انها اصبحت لزوجها عدوا ·

والحق ان زوجها منذ ذلك اليوم قد تحول تحولا منكرا ، فكان يطيل النظر الى ابنته ، ويخطف النظر الى زوجه ، ثم تبلغ القسوة به ابشع أطوارها ، فهو يفصل ما فى ابنته من محاسن ، ويوازن بينها وبين مافى امرأته من مقابح : يوازى بين الانف والانف ، وبين الفم والفم ، وبين الجبيد والجبيد · يفعل ذلك فيما بينه وبين نفسه ثم لا يملك ان يجهر به ، واذا هو يتحدث الى امرأته بما فى وجه ابنته من حسن ،وبما فى وجهها هى من قبح · ولا يزال كذلك حتى ينغص عليها، واذا هى تجهش بالبكاء وتسرع الى غرفتها واذا بكاؤها يدفعه الى الضحك ، واذا فرارها يملأ قلبه اطمئنانا ورضا ·

وكانت نفيسة حاملا حين رفع الحجاب عن زوجها ·فلما شق عليها ما رأت منه وشق عليه الحاحه عليها بما تكره ، رغبت اليه ذات يوم ان ترحل الى القاهرة لتنتظر طفلها بين أبويها ، فلم يتردد فى الاذن لها ، بل قال مبتسما : وتحملين سميحة معك ، ذلك احرى ان ينسينى ما انا فيه من اثم ،فان بينك وبينى عقدة فرض الله على ان ارعى حرماتها · ولم تمض الا ايام حتى كان خالد قد هبط بامرأته الى القاهرة ،فأنزلها عند ابويها ، وقضى فى الاسرة اسابيع متجملا متحملا متكلفا ما تعود اصهاره ان يروا منه من حب لابنتهم ورفق بها ،ملحا فى زيارة المساجد والمشاهد ، يلتمس فيها العلم والمعرفة ، ويلتمس فيها الموعظة والبركة· ولكنه يحس ،ويا شر مايحس! يحس انه لا يكتسب علما ولا معرفة ، ولا ينتفع بموعظة ، ولا يجد هذا الروح الذى كان يجده كلما ألم بمقام من مقامات أهل البيت ، ولا يجد هذا الطموح الى قطرة يلقيها الشيخ فى قلبه من هذا العلم اللدنى فتملأ قلبه حكمة ونورا ، وانما

يحس الحاجة الى ان يطوف فى القاهرة لا يلم بمساجدها ومشاهدها ، وانما ينظر الى ما فيها ومن فيها من الاشياء والاحياء ، ويوازن بين هذه المدينة الضخمة الكبيرة وبين مدينته تلك المنكمشة على ضفة النيل فى بعض الاقاليم · وقد تنازعه نفسه الى اماكن كانت تذكر له احيانا من تلك الافواه الغاوية ، ولكنه يسرع الى نفسه ان عقدة قد فرض الله عليه ان يرعى حرماتها · ثم يسرع الى متجر صهره كأنما يأوى اليه والى صاحبه يستجير بهما من هذا الخاطر الاثم الذى مر بضميره ساعة من نهار · هناك يقيم مع صهره واعوانه سامعا لما يقولون مشاركا فيما يديرون من حديث ، اخذا معهم فى بعض العمل كأنه من اهل المتجر ، ثم يروح مع حميه الى البيت فلا يخرج منه الا اذا كان الغد · وكثيرا ما كان يلوم نفسه اشد اللوم على سيرته هذه الاثمة مع امرأته هذه البرة ، فهى لم تخلق نفسها وانما خلقها الله : فانكار صورتها انكار لما خلق الله ، فيه اثم قد ينتهى بصاحبه الى الكفر · وهى لم تدعه الى أن يتخذها زوجا ، ولم تعرفه الا بعد ان احكمت عقدة الزواج ، وانما هو الذى هبط اليها من اقصى الاقليم · ثم هى لم تره منذ عرفها الا خيرا · لم يعرف منها الا البر به والنصح له والطاعة فى كل ما اراد · فماذا جنت عليه او ماذا قدمت اليه ؟ وما بالها يجزيها من الخير شرا ، ومن العرف نكرا ، ومن البر عقوقا ؟! ثم هى لم تخلق ابنتها جميلة كما هى ، وانماخلقها الله والله يخرج الحي من الميت ، ويخرج النهار من الليل ، فلم لا يخرج الصبية الجميلة من الام الدميمة ! · ولو قد خيرت « نفيسة » لاختارت ان تكون ابنتها جميلة كما هى · فماذا ينقم منها ؟ وماذا يعيب عليها ؟ وما هذا الاثم البشع الذى يدفعه الى ان يفسد ما بين الام وابنتها الصبية الناشئة، وان يوقد فى هذا القلب الكريم الرحيم هذه النارالمنكرة الاثمة: نار الحسد والحقد والغيرة ، وان يغرس فى هذا القلب النقى الطاهر البرىء هذه الشجرة الخبيثة : شجرة الغروروالفتون

والاستعلاء حتى على الامهات · يغرس هذه الشجرة الخبيثة فى قلب صبية لم تبلغ بعد الثالثة من عمرها ، فكيف بها اذا تقدمت بها السن ومازت الجمال من القبح ، وعرفت مايحيط بالفتيان والفتيات من هذه الاهواء الجامحة !

كثيرا ما كانت هذه الخواطر تملأ قلب خالد فتملأ نفسه حزنا واستحياء · هنالك كان يذكر امه حين كانت تزعم له ان الشباب لا ينبغي ان يطلبوا عند ازواجهم الحسن الذى يدعو الى الفتنة ، والجمال الذى يدفع الى الموبقات ، وانما ينبغي ان يطلبوا الى ازواجهم القرين التى تسد عن الوحدة ، وترزق الولد وتقوم على تربيته ، وتدبر المنزل وتحيط زوجها بما يحتاج الرجل اليه من الرحمة والبر والحنان · وكان خالد يترحم على امه ، ويسأل نفسه فيم كانت تتحدث اليه بهذه الاحاديث ؟ الم تكن تكره هذا الزواج وتشفق على ابنها من قبح زوجه ؟! ثم يأبى خالد ان يتعمق هذه الخواطر ، وانما يسرع الى المصحف فيقرأ فيه سورا من القرآن يهب ثوابها لامه ، ثم يقبل على زوجه رفيقا بها عطوفا عليها حتى ينسيها أو يكاد ينسيها ما يمزق قلبها من الالم · وكذلك عاد خالد الى المدينة ، وترك امرأته عند ابويها وقد ظن انها راضية ، واعتقد انه هو راض ، واستيقن انه سيلقى امرأته أحسن لقاء متى اقبل الوليد الذى ينتظرانه ، وسيستأنفان حياتهما كما كانت حلوة هادئة لا يكدر صفوها شيء · ولا يكاد يبلغ المدينة حتى يسرع الى الشيخ فيزوره ، ثم يكثر من زيارته يلتمس عنده البركة والسكينة التى ينزلها الله على القلوب فيملؤها رحمة وعطفا واطمئنانا للاحداث ، وعزاء عن الملمات ، وثباتا للخطوب ·

وتمضى الاشهر ويأتى النبأ من القاهرة بأن نفيسة قد رزقت زوجها صبية اخرى ، وانها سمتها جلنار ، فيبتهج خالد وأبوه بنعمة الله · وكان خالد يود لو رزقته امرأته غلاما ،

وكان على يود لو جاءه ابنه بغلام · ولكن الله قد اراد ، وارادة الله نافذة ، والحق على المؤمنين الصادقين ان يقبلوا نعمة الله شاكرين · والشيخ ينظر ذات ليلة الى الاب وابنه نظرة فيها كثير من سخرية وتأنيب ، وهو يقول لهما : « حسنة وانا سيدك » أليس كذلك يا على ؟ أليس كذلك يا خالد ؟ ان فقراء الترك يقولون هذا لاغنياء المصريين ، فأما انتما فلا تقولان هذا لغنى من الناس ، وانما تقولانه للغنى عن الناس وعن كل شيء · ليصومن كل منكما سبعة ايام وليطعمن كل منكما اهل الحلقة فى هذا الاسبوع ، وليصلين كل منكما ، وليدعون ، وليستغفرن حتى أوذنه بأن الله قد تاب عليه ، سأعرف ذلك فى وجوهكما ، ثم يتحول عنهما فيقيم الذكر · وقد ادى كل منهما ما امره الشيخ بأدائه ، فصام كل منهما ودعا وتصدق واستغفر الله ، ولعل كلا منهما بكى واستعبر · وهما يروحان على الشيخ فى كل يوم ، فينظر الشيخ فى وجوههما ثم يتحول عنهما لا يقول لاحد منهما شيئا · وفى ذات يوم ينظر الشيخ اليهما وقد عرف فى وجوههما الحزن والندم وقال : اجتهدا لعل الله ان يتوب عليكما · ومهما يجتهد الاب وابنه ، فقد يظهر ان الله لم يتب عليهما لانهما يصومان ويصليان ويتصدقان ويدعوان وفى قلب كل منهما خاطر ضئيل جدا لا يكاد يحس: لو رزقنا الله غلاما مكان هذه الصبية ·

ثم يهبط خالد الى القاهرة ليرى ابنته ويرد اهله الى المدينة · فاذا بلغ القاهرة وادخل الى اهله وقدمت اليه الصبية ، نظر فى وجهها ثم نظر فى وجه امرأته ، ثم جهر بقراءة آيات من القرآن يرد نفسه الى الامن وقلبه الى الاطمئنان ! ويمسك نفسه ان تخرج عن طهورها ، فقد رأى ويا نكر ما رأى ، رأى ابنته الثانية صورة مطابقة لامها اشد المطابقة ، وقد تكلف الاستبشار والرضا · واحست منه زوجه ما احست ، فلم تظهر شيئا · ثم خلا اليه حموه فقال : اصبر نفسك على ما تكره يابنى فان الله يمتحن عباده المؤمنين بالصبر · واقسم لقد نهيت

أباك عن تزويجك من ابنتى فانها لم تخلق للزواج · واقسم يابنى لقد رحمتك واشفقت عليك وتحدثت الى ابيك فى ذلك، ولكن لله امرا هو منفذه وحكمة هو بالغها ·

قال خالد وقد ثاب اليه عقله كله وقلبه كله : فانى لاافهم عنك ما تقول منذ اليوم · علام اصبر وفيم امتحن وما رأيت منك ولا من زوجى الا خيرا ، وما انكرت شيئا وما ينبغى ان انكر شيئا !؟ افترى نفيسة قد شكت اليك بعض قسـوتى عليها فى الدعابة والمزاح ؟ فانى معتذر اليك وتائب الى الله من هذا الاثم العظيم ·

قال عبد الرحمن وهو يقبل ختنه : لا والله يابنى ما شكت الى نفيسة شيئا ، وما علمتك الا برا كريما وابن اخ بر كريم، ومنذ ذلك اليوم انزل الله السكينة على قلب خالد ، فثاب الى اهله وابنتيه كأحسن ما يثوب الزوج الصالح والاب العطوف

- ٧ -

على أن للشيطان فى قلب كل انسان مكانا يصـغر ويكبر ويتسع ويضيق بمقدار حظه من الخير ونصيبه من رضا الله وبره به ، وبمقدار اجتهاده فى الدين ، وحرصه على التقوى ، وايثاره للخير والمعروف · ولكن هذا المكان موجود دائما فى قلوب الناس يبتلون به فيما يأتون من الامر وما يدعون ·وقد اجتهد خالد فى الدين ما وسعه الاجتهاد ، واثر الخير والمعروف ما استطاع ، ولكن مكان الشيطان ما زال مستقرا فى قلبـه لانه لا يزول الا من قلوب الانبياء والصديقين · والشيطـان ماكر ماهر فى المكر يحسن الاستخفاء بمكره وغدره ، ويبرع حين يلبس الحق بالباطل ، وحين يزين الشر فى قلوب الناس، وحين يخدع الرجل عن نفسه وعن احب الناس اليـه واثرهم عنده · وقد كان الشيطان ماكرا ماهرا فى سيرته مع خالد، فقد استخفى فى ثنية من ثنايا قلبه وعطف من أعطاف نفسه أسابيع واشهرا ، لا يحدثه بقليل ولاكثير فيمابين سميحة وامها من الاختلاف ، ولا يحدثه بقليل ولا كثيرفيما بين جلنار وامها

من التشابه المروع ، وانما يستخفى فى زاوية من زوايانفسه، حتى اذا اقبل خالد على ابنته الصغرى يريد ان يلاعبها او يداعبها او يلثمها او يشمها انسل حتى يدنو من الصبية ، فلا تكاد الصبية تبتسم الا غشى ابتسامتها البريئة الحلوة بتقلصه المنكر البغيض الذى يسميه ابتساما • ولاتكاد الصبية تقطب وجهها لما يقطب له الاطفال وجوههم الا اتخذ الشيطان أبشع ما يؤذن له ان يتخذه من الصور وعرضه دون وجه الصبية ، فتقع عليه عين خالد ، واذا لسانه يوشك أن يتلو الآية الكريمة المروعة : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » • ولكنه يمسك لسانه فى جهد شديد • ويمسح رأس الصبية وهو يتلو آية الكرسى كأنه يحصن بها الطفلة من كل خوف ، وهو انما يحصن نفسه من هذا الروع المروع الذى أشاعه الشيطان فى قلبه • ولا يكاد الشيطان يسمع الحروف الاولى من هذه الآية حتى ينسل فزعا مذعورا • ولكن فزع الشيطان قصير الاجل ، وحيلة الشيطان طويلة المدى ، فهو لا ينسل الا ريثما يبلغ الصبية الكبرى « سميحة » ذات الحسن الرائع والمنظر الانيق ، فيدفعها الى أبيها ، فتندفع فرحة مرحة ،واذا خالد البائس بين أجمل وجه خلقه الله ، وأقبح وجه خلقه الله، واذا هو مضطر الى أن يلقى نظرة الى تلك ، واذا هو مضطر الى أن يفكر فى امرأته فيلحظها لحظة خاطفة ثم ينصرف مسرعا رافعا صوته بآية الكرسى • حتى اذا بعد عن أهله شيئا أخذ المصحف وفزع اليه بعد أن يستعيذ الله من الشيطان الرجيم• وكذلك كانت حياة خالد عذابا متصلا بين ابنتيهوزوجه ،يدفعه اليهن الحب والبر والعطف ، ويصرفه عنهن الشيطان بمايتنكر من صور ما يزين فى قلبه من شر ، حتى أصبح لا يجد الراحة ولا الامن الا اذا خرج من داره وتحدث الى أصدقائه وأترابه • وأى راحة وأى أمن ! فقد كان الشيطان يألف أصدقاء خالد وأترابه ، وما أكثر ما يألف الشيطان من الناس ! وكان يطلق ألسنتهم بكثير من القول ، فيه الاغراء بالمنكر ، وفيه الصرف عن المعروف ، وفيه هذه الاحاديث التى يألفها الشباب فى

القرى عما يأتون وما يدعون اذا خلوا الى أهلهم ، ثم فيه هذه الاحاديث التى تمتلىء بالامانى الآثمة والاحلام التى نسجت من الخطايا نسجا • فيه هذه الاحاديث التى يظهر فيها الخير والطاعة ويستتر فيها الاثم والفجور : أحاديث الاستكثار من الزوجات والتنقل بينهن ارضاء للشهوات الجامحة والغرائز التى ليس للعقل عليها سلطان ، وحديث الطلاق واستبدال زوجة مكان أخرى للاسباب الهينة والاسباب ذات الخطر •كل هذه الاحاديث كان الشيطان يطلق بها ألسنة الاصدقاء والاتراب الذين كان خالد يلقاهم اذا خرج من داره ، فلا يكاد يسمع منها شيئا حتى يذكر امرأته وصورتها المنكرة ،واذا نفسه تنازعه الى الزواج فيستحى منه ويذكر حماه فى القاهرة وأباه فى المدينة ، ويرحم امرأته وابنتيه من هذه القسوة التى لم يعرض ما يدعو اليها ، ويسأل نفسه عن مكان امرأته الوفية من زوجه تلك التى يمكن ان تطرأ على داره ، وعن مكان ابنتيه هاتين البريئتين من زوجه الطارئة وممن عسى أن ترزقه من بنين وبنات • ثم يسأل نفسه عن نفسه وكيف يكون بين هاتين الزوجين ، وكيف ينصفهما من حبه وقلبه ، وكيف يرضى الله عن عدله بينهما ، والله قد طالب المسلمين هذا العدل ، وبين لهم أنه عسير • وقد كان خالد على ذلك كله معذبا فى حياته بهذه الاهوال التى يكبرها له الشيطان ويجسمها فى نفسه تجسيما ، كما كان معذبا بشبابه القوى وفتوته الثائرة ،وبهذا الشر الجديد الذى ابتلى به ، فقد صرف عن زوجه صرفا ،لايكاد يراها الا تولى عنها اسفا محزونا • فاذا خلا الى نفسه جلى الشيطان له أجمل النساء وجها ،وأحسنهن قواما وأشدهن للرجال فتنة ، وما زال يغريه ويغريه حتى يهم بهذه الصور الرائعة التى تتراءى له ، فاذا هم لم يجد الا ظلالا ووجدعندها ندما أليما •

ولم يكن عبث الشيطان بنفيسة أقل من عبثه بخالد ،ولكنه كان من نوع آخر ، فلم يكن الشيطان يغريها بفتنة ولا يدعوها

الى اثم ، وانما كان يعرض عليها صورتها البشعة فى كل وجه توجه اليه طرفها ، ثم يعرض عليها نساءحسانا رائعات الحسن ويلقى فىر وعها أن زوجها يتمثلهن ويفكر فيهن ويتمناهن ، وأن اصدقاءه واترابه والنساء من اسرته يغرونه على الزواج ويحرضونه على أن يدخل عليها فى دارها ضرة ، ثم يصور لها حياة الضرائر وما يكون من هذا الحقد البغيض والتنافس المنكر فى أحط ما يتنافس النساء فيه ، وما يكون بينهن من الكيد والغدر ، وما يدفعن اليه من الاثم والخـــزى • وكان الشيطان يتبع نفيسة حيثما وجهت من دارها ، فلا تكاد تلقى زوجها حتى يصوره الشيطان لها منصرفا عنها ضيقا بها زاهدا فيها ، فلا تكاد تسمع صوت زوجها حتى يخيل الشيطان اليها أن هذا الصوت يقطر بغضا لها ونفورا منها • وكان الشيطان مع ذلك يذكى فى نفسها غرائز الحب ، فاذا هى لم تكلف قط بزوجها كما تكلف به الان ، ولم ترغب فى التلطف له والرفق به كما ترغب فيهما الان ،ولم تحتج قط الى حنان زوجها وعطفه كما تحتاج اليهما الان ، وكل ذلك مصروف عنها أشد الصرف وأقساه ، وكذلك أصبحت الحياة جحيما بين الزوجين •ويروح خالد على أهله ذات ليلة ، فاذا صعد فى السلم سمع نشيجا مؤلما ، فيسرع الخطو ، واذا هو أمام امرأة قد نثرت شعرها ، ومزقت ثوبها ، وخمشت وجهها حتى أسالت منه الدم ، وهى تضرب صدرها ضربا عنيفا ، وتنتحب انتحابا يفطر القلوب ، فيقف خالد واجما أول الامر ، ثم يرفق بامرأته ، ولا يزال يسألها عن أمرها حتي تجيبه فى شهقتين : تمثلت لى الليلة امرأة زعمت أنها جنية البيت ، وأنها تسكن فى حنايا السلم، وزعمت لى أنك قد تزوجت اليوم أو أنك متزوج غدا • ثم تعود الى شهيقها فتغرق فيه ، والى وجهها وصدرها فتشبعهما لطما وصكا ، وخالد يضرب احدى يديه بالاخرى ويقول : انا لله وانا اليه راجعون !!

ولم ينم خالد من ليلته ، وانما قام عند امرأته ذاكرا الله تاليا للقرآن ، داعيا مستعيذا من الشيطان ، واضعا يده على رأس

نفيسة ، مؤمنا بأن هذه الآيات والادعية التى كان ينطلق بها لسانه فى صوت مرتفع بعض الشىء فى كثير من الايمان وكثير من الخوف ، لا تصدر عن فمه فتشـــيع فى الغرفة وتطـــرد الشياطين فحسب ، ولكنها تصدر عن جميع جوارحه بعد أن تجرى مع دمه فى عروقه كلها كأنها الروح اللطيف الحار • وليس من شك فى أن طرفا منها يصل الى هذا الرأس المتقد المضطرب ، ثم يجرى فى جسم نفيسة كله فيشيع فيه برد الراحة وحلاوة الامن والهدوء •

والواقع أن نفيسة أقامت على ثورتها وانتحابها حينا ، ثم أخذت رعدتها تخف ، ودموعها تجف ، وشهقاتها تهدأ وتفصل بينها لحظات طوال أو قصار ، حتى اذامضت ساعات من الليل كانت نفيسة قد فقدت قوتها ونشاطها ، ولبثت فى مكانهـا هامدة جامدة ، ثم هوت الى جنبها كأنها البناء المنهار • ولم يشك خالد فى أن روحا من الله قد مسها فردها الى الدعـــة والهدوء • ولكنه على ذلك لم يتركها ، وانما جلس منها غـير بعيد ، ومضى فى ذكره لله وتلاوته للقرآن ، واستعـاذته من الشيطان • وحسنا فعل ، فلم يكد يصيح الديك حين قـارب الليل ثلثيه حتى هبت نفيسة مذعورة ، ثم نهضت قائمة ، وأخذ صوتها يرتفع بالنشيج ، واخذت يداها تعملان فى وجهها وصدرها لطما وصكا • هنالك وثب خالد كما وثبت ، ثم أسرع اليها فأجلسها ، وقام منها مقامه أول الليل ، يده على رأسها، ولسانه ينطلق بالقرآن والدعاء • وبعد لأى ثابت الى الهدوء، ولبث هو قائما يذكر ويتلو ، حتى سمع صوت المؤذن يرجع « سبحان فالق الاصباح » • وقد أقام مكانه حتى رأى الشمس تسعى الى الغرفة فى استحياء ،ثم يزول عنها الحياء قليلاواذا هى تغمر الغرفة فى جرأة أشبه شىء بالوقاحة • كذلك كان يفكر خالد فى اشراق الشمس ودخولها الى غرفته ذلك الصباح

ومع ذلك فما أحب شيئا قط كما أحب شروق الشمس ، ولا داعبت نفسه شيئا قط كما داعبت هذا الضوء الضئيل الذى ينفذ من الافق كأنه السهم ، ثم لا يزال يمضى أمامه ويمتد من جميع أقطاره حتى يوقظ الارض والسماء جميعا ، ويملأ ما بينهما بهجة وجمالا • ولكنه كان فى ذلك اليوم مثقل القلب والنفس بحزن يشبه الموت ، ولولا فضل من ايمان وبقية من تقوى وهذا القرآن العذب الذى كان يرتله ترتيلا لثارت نفسه ولانتهت به الثورة الى جموح يخرجه عن طوره ويدفعه الى ما لا صلاح له من الامر • وما الذى جنى من الذنب وما الذى اقترف من الاثم حتى يمتحن فى نفسه وأهله وعمله الى هذا الحد ؟ ! انه لم يطلب الى أحد أن يزوجه ،ولم يفكر فى الزواج ، ولم يختر زوجه حين دعى الى أن يتزوج ، وانما تتابعت الامور عليه كأنها الصواعق يقفو بعضها أثر بعض ، واذا هو فى القاهرة، واذا هو زوج ، واذا هو بعد ذلك أب مرتين ، واذا كل ذلك لا يذيقه الا سرورا قليلا وحزنا كثيرا • ولكن قضاء الله لامرد له وحكمة الله لا تأويل لها ، والمؤمن حقا هو الذى يذعن للقضاء ويصبر على المحنة ، ولا يسأل الله عما يفعل فهذا كفر به وشك فيه ، ولا يسأل الله رد القضاء فقضاء الله لايرد ، وانما يسأله اللطف فيه ، فالله لطيف بعباده ، وقد قال : « ادعونى أستجب لكم » • وخالد يدعوه ويدعوه ، لا يفتر لسانه عن ترديد هذين الدعاءين اللذين تجرى بهما ألسنة الشيوخ فى الريف : «اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير • اللهم انا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه » • وقد رأى امرأته آخر الامر هادئة مطمئنة تبسم لضوء الشمس ، لكنها ساكتة لا تنطق بحرف ، ساكنة لا تأتى حركة • فلما سألها عن حالها لم تجبه كأنها لم تسمعه • فأعاد عليها السؤال مرة ومرة ، ولكنه لم يسمع لسؤاله جوابا • ولم ير أمامه الا تمثالا بشعا على وجهه ابتسامة

بشعة تزيده قبحا وتشويها ، وقد امتدت عيناه كأنما تنظران الى شىء بعيد لا يرى ، وهو كذلك هامد جامد كأن ليس له حظ من حياة • هنالك انسل خالد من غرفته فى رفق وأسرع الى أبيه ، فاذا هو جالس فى مصلاه من غرفة أم خالد يسبح ويحمد ويكبر ، وأمامه كأسان من القهوة وقطعة من الخبز الجاف وقليل من الملح ، لم يمدد الى شىء من ذلك يده بعد لانه لم يزل فى صلاته ودعائه • فلما رأى ابنه مقبلا ولم يكن تعود ان يراه فى مثل هذه الساعة من النهار ولا فى مثل هذا المكان من الدار رفع صوته بما بقى من فمه من الدعاء والتسبيح : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله وتعالى بكرة وأصيلا ، ثم تحول الى ابنه وهو يقول : أصبح بخير يا بنى !ما وراءك ؟ قال الفتى فى صوت منخفض : أصبح بخير يا أبت ! ان ورائى الا خير ، فقد ألم بنفيسة بعض المرض • قال على : وما ذاك ؟ قال خالد : أحسب أن طائفا من الشيطان قد مسها ، ثم قص على أبيه الخبر فى جمل قصار والشيخ يصغى اليه فى شىء من الوجوم • فلما فرغ الفتى من حديثه لم يزد الشيخ على أن قال: ألهمك الله الصبر يا بنى وغفر لى ورحم أمك ! فقد أنبأتنى يوم زواجك بأنى لا أزيد على أن أغرس فى دارنا شجرة البؤس • ثم أراد الشيخ ان يكون شجاعا فهم أن يمد يده الى قطعة الخبز ولكنها لم تمتد، واذا عيناه تغرورقان بالدمع ، واذا هو يقول فى صوت متقطع فى حلقه : « اللهم انا لا نسألك رد القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه » • وابنه يجثو بين يديه خاشعا ، فيقبل رأسه صامتا ، ثم يتحول عنه فيقدم اليه احدى كأسى القهوة فيأخذها منه ،ويتناول هو الكأس الاخرى ، فيشربان كأنهما الصديقان • ولم يكن خالد قد شرب القهوة بمحضر أبيه قبل اليوم • وقضت الدار نهارا غريبا ، رجلان يختلفان الى غرفة نفيسة ، كلاهما يتلو القرآن ويجأر بالدعاء وعمات خالد ونساء أبيه قد ملأن الدار يطوفن بالبخور مهمهمات متمتمات ، منهن من تدعو الله ومنهن من تدعو الشيطان • وقد اجترأت احداهن فذكرت حفل الزار • ولكن

عليا ثار لذلك وزجر لنساء زجرا عنيفا ، وأقسم لتأوين كل واحدة منهن الى غرفتها ، ولينقطعن لغطهن الثقيل البغيض · ثم أقام يخالف مع ابنه الى غرفة نفيسة ، حتى اذا صـــليت العصر خرج من الدار يقصد قصر الشيخ · وقد انتهى اليه ، فرآه نفر من أصحابه يسمع منهم ويقول لهم · فلما رآه الشيخ مقبلا من بعيد لمحه لمحة خاطفة ثم قال فى صوت هادىء : ان لعلى اليوم لشأنا · وقد عرف القوم أن قد كان لعلى شأن ، فقد دنا من الشيخ وألقى فى أذنه بعض الهمس ، واذا الشيخ ينهض ويأخذ بيد على ، واذا هما يسعيان الى باب يفتح لهما فى صدر المجلس ثم يغلق من دونهما ، وقد قص على على شيخه خبر نفيسة ، فاستمع له الشيخ ، حتى اذا فرغ من حديثـــه بسط الشيخ يديه ورفع رأسه ولم يزد على أن قال : « اللهم انا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه » · ثم أطرق وجعل فمه يهمهم وحبات سبحته الغلاظ تساقط بين أصابعه، حتى اذا أتم دورة السبحة رفع رأسه الى على وقال : وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ! قم يا بنى فأنبىء عبدالرحمن بمرض ابنته ، فما ينبغى أن يجهله ، وما أشك فى أنه سيقبل مسرعا · ثم ابتسم وقال : وسيتيح لنا ذلك أن نراه فقد بعد عهدنا به ، ثم نهض ونهض معه على وفتح لهما الباب وأغلق من دونهما ، واذا الشيخ بين أصحابه قد جلس اليهم يسمع منهم ويقول لهم ، واذا على منصرف الى داره ونفسه تتقطـــع حسرات ، فقد كان يظن أن الشيخ سيصحبه الى الـــدار ، وسيدخل على نفيسة ويدعو لها بالشفاء · ولو قد فعل لردت نفيسة الى خير ما كانت عليه من الصحة والعافية ·

- ٨ -

أقبل عبد الرحمن بعد أيام وفى نفسه قلق لم يبلغ الجزع· فلم يكن على قد أنبأه بأكثر من ان ابنته مريضة · ومن ان من الخير أن يراها وان تراها أمها · وكان عبد الرحمن رجلا جلدا صبورا عظيم الاحتمال ، قد امتحنته الايام فى ابنيه جميعا ، فلم ينخلع قلبه ، ولم يخرج من وقاره المألوف ، وانما بلامرارة الحزن الى أقصاها واصطلى نار الالم الى أشدها ، وهو ثابت لا يضطرب · وقور لا تزدهيه الخطوب ، يرحمه الناس ولكنهم يعجبون به ويعجبون منه · وهو ماض فى حياته ، محتمـــل لاثقالها ، ثابت لعواصفها ، يشهد الصلوات الخمس فى المساجد ويتلو ورد السحر من آخر الليل ، ويختلف الى متجره وجه النهار وآخره ، فيعمل ويرى أعوانه يعملون ، قليل الكـــلام كثير الصمت ، لا يغفل قلبه عن ذكر الله ولا تنسى نفسه ان تستخرج من آلامه مواعظ وعبرا · وهو يرحم امرأته ويشفق عليها ، ويحيطها بشىء من عطف يوشك ان يكون قسوة ، فهو لا يحب البكاء كما أنه لم يكن يحب الفرح ، وانما يريد لامرأته أن تكون مثله هادئة ، رزينة كاظمة للغيظ ، صابرة على الخطب،

مسلمة أمرها الى الله ، قابلة قضاءه فى رضا ، منتظرة قضاءه فى ثقة • فلما جاءه النبأ بأن ابنته مريضة ، وبأن الخير أن يراها وأن تراها أمها ، لم يظهر امرأته على شىء ، وانما زعم لها أنه مسافر الى الاقاليم فى بعض ما كان يسافر له من التجارة • فلما وصل الى المدينة ولقى عليا وخالدا قال لهما فى صوته الهادىء وعلى ثغره ابتسامته المطمئنة : لم أخبر أم صالح بشىء ولم أكلفها مشقة السفر ، فان تكن نفيسة قادرة على الرحلة الى القاهرة فالخير أن تمرض هناك وأن ترى أمها فى دارها • وان تكن غير قادرة على الرحلة مرضناها هنا حتى يكون لها حظ من برء فتتم شفاءها فى القاهرة • كذلك قدرت لله تقديره ، وهو يقضى فينا بما يشاء • ولم يرد مع ذلك أن يستريح ولا أن يشرب القهوة ، وانما صمم فى هدوء على أن يرى ابنته قبل كل شىء • قال على : ستراها ولكن •• قال عبد الرحمن : ولكن ماذا ؟ أتراكما خدعتمانى وأنبأتمانى بمرضها بعد أن بلغ الكتاب أجله ؟ قال على : لا ! ولكن مرضها غريب• قال عبد الرحمن : مرضها غريب ! لقد كانت غريبة الاطوار فى طفولتها وصباها ، أفتراها قد جنت ؟ فأما على فلم يجب• وأما خالد فأجهش بالبكاء • وأما عبد الرحمن فرفع يده الى جبهته وظل كذلك حينا ، ثم مسح احدى يديه بالاخرى وهو يقول : انا لله وانا اليه راجعون ، ثم أقام مكانه لم يظهر ميلا الى لقاء ابنته ، وانما قال لخالد : اطلب لنا القهوة يا بنى • وأغرق بعد ذلك فى صمته •حتى اذا جاءت القهوة وشرب منها كأسين قال مبتسما : والصبيتان ما خطبهما ؟ قال على : هما بخير ، روعتا شيئا أول الامر ، ثم حيل بينهما وبين لقاء أمهما قال عبد الرحمن : فأستطيع أن أراهما ؟ قال خالد : نعم ! ثم غاب ساعة وعاد ومعه ابنتان احداهما آية فى الحسن والاخرى آية فى القبح • فلما رآهما عبد الرحمن ضمهما اليه وقبلهما ومسح على رأسيهما ، ثم قال لخالد : ردهما الى لعبهما فقد كانتا تلعبان من غير شك • ولم يكد خالد ينصرف بالصبيتين حتى انحدرت من عينى عبد الرحمن دمعتان أسرع

الى تجفيفهما وهو يقول : « اللهم عفوك ومغفرتك ورضاك ! اللهم انا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه » •ثم قال : ألم تر (ياعلى) أنى قد أحسنت حين لم أزعج أم صالح ولم أجشمها السفر ! فحسبها ما تنتظر من هول • قال على : هون عليك أبا صالح ! انما هى محنة وتزول • قال عبد الرحمن : أرجو ذلك ان شاء الله • ولكن مر فلنهيأ للسفر اذا كان الغد ، أما اليوم فانى أريد أن أزور الشيخ وأن أحدث به عهدا • ثم سكت قليلا والتفت باسما الى خالد وهو يقول : « آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » وأقبل القوم على غدائهم وحديثهم ثم على صلاتهم ودعائهم كأن لم يلم بهم خطب فلما اصفر وجه النهار سعوا الى شيخهم ، فألفوه بين أصحابه يعظهم ويقرأ عليهم بعض الحديث ، فاستمعوا واستمتعوا ، وشهدوا معه صلاة العشاءين وما بينهما من دعاء ، وأقاموا معه حلقة الذكر كما كانوا يصنعون من قبل ، حتى اذا تفرقت الحلقة وأخذ الناس ينصرفون ، تثاقل عبد الرحمن فلم ينصرف ولم يظهر ميلا الى الانصراف ، ورأى الشيخ ذلك منه فأشار اليه أن أقم ، وأشار الى صاحبيه ان أقيما • حتى اذا خلا لهم وجه الشيخ هم عبد الرحمن أن يتكلم ولكن الشيخ قال : ما رأيت رجلا مثلك يا عبد الرحمن ! ان ايمانك لحسن ، وان دينك لمتين ، وان أجرك عند الله لعظيم • قال عبد الرحمن : سمع الله لك يا مولاى ! انى قد حرصت على أن أظفر منك بهذه الساعة مع صاحبى هذين لاشهدك على وعليهما • قال الشيخ: وما ذاك ؟ قال عبد الرحمن : انى سأرتحل يا بنتى اذا كان الغد • قال على وخالد فى صوت واحد : وسنرتحل معك • قال الشيخ : دعاه يقل • ومضى عبد الرحمن فى حديثه فقال: ان ابنتى لم تعد تصلح زوجا لخالد ، ولكنى لا أحب الطلاق ، لان الله لا يحب الطلاق • وهم خالد ان يتكلم ، فأشار الشيخ اليه : ان صه • قال عبد الرحمن : فانى أريد ان أشهدك على أنى سأكفل ابنتى والصبيتين ما حييت ، فاذا مت فانى أوصى بهن وبامرأتى ومالى كله الى خالد ، يقوم فى ذلك كله بأمر الله

وبما ينبغى من البر بالزوج والولد والصهر وذوى المـــودة والقربى • ولم يبلغ عبد الرحمن ذلك من قوله حتى كان على وابنه ينتحبان • قال الشيخ : ما رأيت كالليلة قوة ، وما رأيت كالليلة ضعفا • ثم نظر الى على وابنه وهو يقول :أما تستحيان ثم بسط يده الى عبد الرحمن وقال : ابسط يدك أبايعك عـلى ما تقول وأنا وكيل خالد ، وتصافح الرجلان • ثم أقبل الثلاثة على الشيخ فقبلوا يده ، ثم صفق الشيخ تصفيقا خفيفا ، فلما أقبل الخادم قال الشيخ : أرسل الينا قهوة ، وقل للشيـــخ مدكور يغنى لنا :

سائق الاظعان يطوى البيد طى

وما هى الا لحظة حتى أقبلت القهوة وأقبلت المجمرة فىشىء من بخور ، وارتفع صوت الشيخ مدكور فى هدوء الليل يغنى فى شعر ابن الفارض الجميل والقوم يشربون القهوة حســوا خفيفا ، والشيخ يضطرب فى مجلسه اضطرابا خفيفا ويقول فى صوت همس : الله ! الله ! ثم ينقطع الصوت وينهض الشيخ فيصلى ركعتين ، ويصلى كل من الثلاثة مثله ركعتين ، فاذاأتموا صلاتهم قال الشيخ للجماعة : انصرفوا راشدين ، أنراك قبل سفرك يا عبد الرحمن ؟ قال عبد الرحمن : لا يامولاى ! انه سفر يحسن الاستعجال به •

عاد على وابنه من القاهرة بعد اسابيع وفى نفس كلمنهما بقية من حزن عميق لم تمحها الايام ، ولكن نسجت عليهـــا حجابا أخذ يزداد صفاقة وكثافة من يوم الى يوم ، حتى انسى على او كاد ينسى نفيسة ، لولا انه كان يرى خالدا ويذكر أنه يعيش عيشة الفتى الاعزب ، فيرثى له ويفكر فى مستقبـل امره تفكيرا قصيرا ، ولولا ان الشيطان كان يخيل اليه بين حين وحين أن ثروة عبد الرحمن صائرة اليه يوما ما فمضاعفة ثروته ، ومصلحة من أمره ما يحتاج الى الاصلاح ، فقـــد كثر نساؤه ، واخذ ولده يكثرون ، واخذت النفقة تزداد وتثقل اعباؤها ، واخذت الحاجات تكثر وتتنوع وتتعقد •• وتجارة على رابحة من غير شك ، ولكن ربحها يذوب فىهذه الاسرة الكبيرة كما يذوب الملح فى الماء •

وان العام ليتم دورته ، ويبحث على عما بقى له من ربحـه فلا يجد شيئا • ولعله ان يجد رأس المـــال وقد تحيف منه

قليلا او كثيرا ، فيضيق بذلك يوما او يومين ، ويغتم له ليلة او ليلتين ، ولكنه لا يلبث ان ينصرف عن ضيقه وغمه الى حياته هذه المطردة المضطربة : تجارة اول النهار ، ولغو اخره ، وراحة بين ذلك ، وسهر عند الشيخ اذا كان الليل ، ثم العودة الى داره ليقضى بقية الليل عند هذه او تلك من نسائه ، يسمع منها ابغض ما يسمع الرجل من امرأته : شكاة من هذه ، ونعيا على تلك ، وعيبا للثالثة وثناء على نفسها ، ثم الحاحا فى التسوية بينها وبين ضرائرها ، فقد اهدى الى هذه مالم يهد اليها مثله . وزعمت تلك انه ترك لها من النقد كذا وكذا درهما على حين انه يبيت عندها ولا يترك لها شيئا ، وانها لتلتمس المليمات تشترى بها الحلوى لصبيها البائس فلا تجدها ، فيظل ابنها محروما ينظر الى ابناء الضرائر وهم فرحون بما فى ايديهم من الحلوى ومافى جيوبهم من الوان النقل . وعلى هذا النحو تنغص عليه ليلته حتى ينتظر الصبح اشد ما يكون اليه شوقا . فاذا سمع صوت المؤذن اسرع الى وضوئه وصلاته ، يظن ان التقوى هى التى تدفعه اليهما ، وما كان يدفعه اليهما الا الهرب من هذه الحياة البغيضة ، ومن هذا الليل الطويل الثقيل ولم يكن على يجد الراحة والنعيم الا فى ليلة ام خالد حين يخلو الى نفسه والى ذكرى زوجه الكريمة ، فيمتلىء قلبه حبا وحنانا ، ثم يسرع الى ذكر الله وتلاوة القرآن ليهدى الى هذه الزوج الصالحة شيئا من ثواب الاخرة بعد ان لم يستطع ان يهدى اليها شيئا من نعيم الدنيا . رحم الله أم خالد ! لقد كانت برة به عطوفا عليه ، لم تخالف عن امره قط ، ولم تسؤه فى نفسه قط ، لم تؤذه بقول ولا عمل ، لم ير منها الا خيرا منذ لقيها الى ان فارقها . كانت مباركة لم يحس فى ايامها ضيقا ولا ضنكا ، وانما كان المال يتدفق فى متجره ، والخير يتدفق فى داره . وكانت حياته بين حبها له ورضا الشيخ عنه ونمو ابنه خالد مشرقا باسما فرحا مرحا ، نعيما متصلا . اين هو من هذا النعيم ! ايجده عند زينب هذه التى تقدمت بها السن حتى اخذ وجهها يكلح وتظهر فيه

التجاعيد ، وهى مع ذلك تتجمل وتتدلل وتتكلف ما يتكلفه النساء الحسان ! وما الذى يعجبه من زينب هذه ! وما الذى يكرهه على ان يمسكها فى داره !! لقد تزوجها فى اخر شبابها ، فلم ترزقه ولدا ، ولم ير عندها خيرا ، بل لم ير عندها الا سوء الخلق ، والا هذه الغيرة الطارئة التى ادخلتها فى قلب زوجيه الاخريين . لقد كان مستمتعا بشىء من هدوء قبل ان يتخذ هذه الزوجة الثالثة . وما له لا يكتفى بزوجين اثنتين ! رحم الله تلك الايام التى كان يكتفى فيها بأم خالد . ولكن أم خالد ! وكيف يقاس اليها النساء ! ثم يصبح وقد استقر رأيه على ان يفارق زينب ، فهو يلتمس لذلك الاسباب والعلل . واى شىء ايسر من ذلك ! يكفى ان تلقاه متجهمة تحسب تجهمها دلالا ، متنكرة تحسب تنكرها تيها ، يكفى ان يدعوها فتبطىء فى الجواب ، واذا هو ثائر فائر ، يلقى فى وجهها كلمة الطلاق ، ثم يفر من بين يديها مسرعا فيتنفس ملء رئتيه ، ويأوى الى غرفة ام خالد على مصلاه يستغفر الله ويتلو القرآن .

كذلك كانت حياة على زواج وطلاق ، وطلاق وزواج ، واحتمال لما يقتضيه ذلك من نفقات ، واحتمال لما تقتضيه كثرة الولد من نفقات ايضا ، واهمال لهؤلاء الولد الذين يكثرون من يوم الى يوم . اهمال مصدره كثرتهم من جهة ، وتنافس امهاتهم من جهة اخرى ، وانصرافه الى تجارته ولغوه وعبادته من جهة ثالثة . وقد اهمل تربية خالد حين كان خالد وحيدا ، حتى كان يفسد ويدركه الانجذاب لولا لطف الله وكرامة الشيخ . وهنا يستعرض امر خالد وزواجه وكل هذه المأساة ، فيحزن لها شيئا ، ثم يذكر عبد الرحمن وثروته فتمر على ثغره ابتسامة ينكرها ولكنه يستعذبها على كل حال . ومما زاد حياة على تعقدا وارتباكا واكثر فيها الهم والحزن ان تجارته اخذت تفتر شيئا فشيئا على مر الاشهر والاعوام . لم يفطن لاسباب ذلك اول الامر ، وانما ضاق به وشكا منه ، وحاول ان يطب له فلم يفلح . ثم أصبح ذات يوم وقد كشف عنه

الغطاء واذا هو يرى نكرا من الامر يملأ قلبه خوفا ، ثملايلبث ان يملأ قلبه يأسا · هذه المتاجر الجديدة التى اخذت تنشأ فى المدينة على غفلة من اهلها لا يدرون كيف جاءت اليهم ، ولا كيف استقرت فيهم ، وانما هو بناء يقام لا يعرف اهل المدينة من يقيمه ولا لمن يقام ، ثم ينظرون فاذا عمارة ضخمة قد ارتفعت شاهقة فى السماء ممتدة فى الفضاء ، وقد أقبل عليها قوم غرباءجاءوا منالقاهرة فملئوهابضائع وعروضا ،واحاطوها بالوان من الزينة والبهجة تدعو الناس وتغريهم بها ، واذا هم ينظرون ثم يقفون ثم يدخلون ويخرجون بعد ذلك ، وقد تركوا ما كان معهم من نقد ، وحملوا من السلع والعروض اشياء حزمت لهم حزما حسنا ليس مألوفا فى هذه المتاجر القديمة التى توارثها الابناء عن الاباء · واغرب من هذا انهذه المتاجر التى اخرجها الشيطان من الارض لاتقتصر على لون بعينه من البضائع او ضرب بعينه من السلع ، وانما هى تبيع كل شيء · متجر واحد يعدل جميع متاجر المدينة · اى غرابة فى ان يفتن الناس بهذا الجديد ويتهالكوا عليه ينفقون فيه اموالهم ويقتضون منه حاجاتهم ! فأما على واصحابه ومتاجرهم هذه القديمة القذرة المهملة النائمة ، فعليهم وعليها العفاء ·

كذلك أحس ذات يوم أنه لن يستطيع ان يثبت لهذه الشياطين الجديدة التى هبطت على المدينة لتفقر أغنياءها وتذل أعزاءها ، وتأخذ ما فيها من مال فتحمله الى شياطين أخرى تقيم فى القاهرة أو فى مدينة أخرى غير القاهرة · وقد تحدث على بذلك الى بعض أصحابه التجار ، فاذا هم يرون مثل ما يرى ، ويجدون مثل ما يجد ، ثم لايملكون ، كما أنه لا يملك ، الا أن يضربوا يدا بيد ويقولوا : لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم حسبنا الله ونعم الوكيل · ثم سعوا الى شيخهم ، وتحدثوا اليه فى ذلك ، فاذا هو يرى مثل مايرون، ويجد مثل مايجدون ويقول كما كانوا يقولون : لا حول ولا قوة الا بالله العلىالعظيم حسبنا الله ونعم الوكيل ، ثم يحدثهم عن أشراط الساعة ، ويذكرهم بأيام الله ، ويعظهم فيبغض اليهم الغنى ويحبب اليهم

الفقر ، ويؤكد نهم أن أكثر أهل الجنة من الفقراء ، وأن أكثر أهل النار من الاغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ·

وكذلك عملت حياة على فى ماله وتجارته ، وعملت فى ماله وتجارته هذه الشياطين التى انقضت على المدينة كأنها الجراد، واذا احساسه بالضيق يكثر ويشتد ،واذا هو يقصر مع بعض عملائه فى القاهرة فلا يؤدى اليهم حقوقهم فى ابانها ، واذا هو مضطر الى أن يتخفف من بعض ما اختزن من العروض يبيعها بثمن بخس ليؤدى بعض ما عليه من دين · وقد خطر له ذات ليلة وهو قاصد الى غرفة أم خالد أن يهبط الى القاهرة ليرى عبد الرحمن ، فيعلم علمه ، ويسأل عن نفيسة وابنتيها ،فقد أهملهن منذ زمن طويل · ومن يدرى ، لعله أن يجرؤ فيلتمس عند صهره شيئا من معونة · فلما انتهى الى غرفة أم خالد جلس على مصلاه ، فدعا واستغفر وصلى وتلا القرآن واستخار الله · ولم يهمل بعد أن صلى الصبح أن يقرأ سورة « يس » سبع مرات يعقبها فى كل مرة بدعائها المعروف · فلما فرغ من ذلك غفا غفوة ثم استفاق ، واذا محمود يحمل اليه كسرة من خبز جاف ، وشيئا من ملح ، وكأسين من قهوة ، فطعم وشرب وحمد الله ، ونهض وهو مستيقن أن الله قد عزم له على الرشد ، ومزمع أن يسافر اذا كان الغد ، وقد أنفق نهاره في الاستعداد لهذا السفر ، فلم يكن بد من أن يحمل الى نفيسة وابنتيها ما يسرهن · والله يعلم كيف احتال فى ذلك وجد فى الحيلة ، ولكنه سافر من الغد كما تعود ان يسافر موفورا كثير المتاع ، وقد استخلف ابنه خالدا على داره ومتجره · فلما وصل الى القاهرة وانتهى الى دار عبد الرحمن لم ينكر شيئا أول الامر ، فقد لقيه صديقه الشيخ باسما مرحبا · ولقيته أم نفيسة باسمة عن ثغر محطم فى وجه مربدقد عبثت به السنون ولقيته نفيسة هادئة مطمئنة راضية · فأما الصبيتان فقدنمتا نموا حسنا ، فازدادت احداهما جمالا وازدادت الاخرى قبحا· ولكن عليا لم ينفق مع صديقه الشيخ يوما وبعض يوم حتى

أنكر كل شيء ، واذا هو يلعن الايام فى القاهرة كما كان يلعنها فى المدينة • فقد تعرضت تجارة صاحبه فى العاصمة لمثل ما تعرضت له تجارته فى الاقليم ، لا لان صاحبه استكثر من النساء والولد فكثرت نفقته وثقلت أعباؤه ، فقد كان عبد الرحمن صاحب نسك وقناعة وزهد فى الدنيا ، بل لان القاهرة امتلأت بهذه الشياطين التى أقبلت على مصر تغزوها منذ أعوام فأفسدت فيها كل شيء •

قال عبد الرحمن : ولست أدرى ما الذى سلط علينا هذه الشياطين ، فقد كنا آمنين وادعين موفورين ، ثم أصبحنا ذات يوم واذا الشر يأخذنا من جميع أقطارنا ، شياطين يأتوننا من يونان ، وشياطين يأتوننا من ايطاليا ، وشياطين يأتوننا من فرنسا ، وشياطين يأتوننا من بلاد الانجليز • صدقنى يا أبا خالد ان الله قد غضب علينا • وقد بحثت كثيرا عن أسباب هذا الغضب ، فالله لا يغضب على الناس لغير سبب ، وانما هو قد عودهم أن يحسن اليهم تفضلا منه ، والا يغضب عليهم حتى يستوجبوا غضبه بمنكر يأتونه ، او ذنب يقترفونه أو اثم يتورطون فيه ، وقد سألت الشيوخ فى الازهر والاولياء الصالحين الذين يعكفون فى المساجد ويلوذون بمشاهد أهل البيت ، فلم أجد عند أحد منهم شيئا • ولكنى غفوت ذات ليله بعد أن صليت العشاء ، نما راعنى الا شيخنا وهم يبتسم لى ساخرا ، ثم يدنو منى فيمسح على رأسى ويتلو هذه الآية الكريمة : « واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ، ثم ينأى عنى قليلا قليلا وهو يقول : اتبعنى أبا صالح فانى سأفر بنفسى ودينى من هذه القرية الظالم أهلها • وقد أفقت مذعورا ، ولم أستطع منذ تلك الليلة أن أقنع نفسى بأنى لم أر الا حلما ، وانما استقر فى قلبى أن الشيخ منتقل الى رضوان الله ، وأنى لن ألبث بعده الا قليلا • ولقد أقبلت أبا خالد وأنا أحدث نفسى بالسفر لازوركم وأحدث عهدا بالشيخ • فمن يدرى ! لعله الوداع •

قال على وصوته يرتجف : هون عليك ، فانك لم تر الاحلما

وقد تركت الشيخ على أحسن ما عهدته قوة ونشاطا ، وقد حملنى تحية اليك ودعاء لك • ولكنه دعانى حين انصرفت عنه بعد وداعه ، فأسر الى أنه هابط الى القاهرة ، فقد طال عهده بأهل البيت ، ثم قال فى ابتسامة ما رأيت قط أعذب منها ، لقد كانت شفتاه كأنما تنفرجان عن نور • قال : أبلغ عبد الرحمن أنا سنكون له ضيفا •

هنالك لم يملك عبد الرحمن نفسه أن قال بأعلى صوته : الله أكبر ! الشيخ ضيفى ! ثم أهوى الى صديقه فقبل رأسه وهو يقول وفى عينيه دمعتان تترقرقان : ويحك أبا خالد !لم أخرت على هذا النبأ السعيد ؟!

ومهما يكن من شيء فقد سافر على الى القاهرة وفى قلبه شيء من حزن وشيء من أمل ، وعاد الى المدينة وفى قلبه كثير من الحزن وكثير من اليأس ، الا من روح الله • ولكنه قال لصديقه وهو يودعه : سأعود اليك بعد حين ، فما ينبغى ان اتخلف عن مصاحبة الشيخ ، ولابد من أن نزور معه أهل البيت •

- ١٠ -

أما خالد فقد كدنا نشغل عنه بحديث أبيـه • وليس فى هذا شىء من بدع ، فانه كان يعيش فى أيام لم تكن حيـاة الابناء فيها شيئا ما دام آباؤهم ناهضين بما كان ينهض به الاباء من الامر فى ذلك الوقت • فهم كانوا كل شىء ، يصدر عنهم ما يدبر شؤون الاسرة من أمر ، وينتهى اليهم ما يعرض للاسرة من خطب ، وما ابناؤهم الا ظلال لهم ، بل ظلال ناقصة تصور ما كان آباؤهم يريدون لهم ان يكونوا • انما كان الابناء يستكملون شخصيتهم وينهضون بأمرهم كله حين كان آباؤهم يفارقون هذه الارض او يضطرهم المرض والكبر الى ان يلزموا بيوتهم عابدين أو فارغين ، لا يأتون شيئا ولا يدعون شيئا ، لانهم لا يقدرون على شىء • وكان على فى ذلك الوقت مالكا لامره كله ، لم يعرف قط نفسه قويا كما كان فى ذلك الوقت ، ولم يستجمع قط قواه العاقلة والعاملة كما استجمعها فى تلك الايام • ولذلك اسرف على نفسه وعلى اسرته فى كل ما كان يأتى ويدع : اضاعة للتجارة ، واتلاف للمال ، واسراف مع

ذلك فى الزواج والطلاق ، واستكثار مع ذلك من البنين والبنات حتى كان حديث الناس فى المدينة وفى بعض القرى المجاورة ، وحتى تحدث اليه أصحابه فى ذلك ، فكان يقول لهم ما ذكرناه آنفا من أنه انما يستوفى ما أباح الله له من الحـــق حين أذن للمسلمين أن يتزوجوا مثنى وثلاث ورباع • وكان يقول لهم فى شىء من الغلظة والاستهزاء : ما تنقمون منى ! من استطاع منكم أن يصنع صنعى فليفعل • ألسنا قد أمرنا بالزواج وبأن نستكثر من النسل ما وسعنا ذلك ، لان نبينا (ص) مباه بنا الامم يوم القيامة ؟ فهل تعيبون على أن أكون سببا من أسباب امتياز النبى بأمته على غيرها من الامم يوم القيامة! وكان أولوا الجراءة من أصدقائه يذكرون له كثرة النفقة وثقـــل العبء ، فيسخر منهم وقد يتجاوز السخرية الى التأنيب ، ويقول لهم : ما رأيت قوما مثلكم يشكون فى قدرة الله وينكرون فضله على الناس ! ان الله هو الذى يرزقنا الولد • وقد ينبغى أن تعلموا ان كنتم لا تعلمون ، أن الله لا يخلق فما الا أطعمه ، ولا يبرأ نسمة الا كفل لها رزقها • وقد نهينا عن قتل الولد مخـــافة الاملاق • ولست أفرق بين قتل الولد مخافة الاملاق وتجنبـه مخافة الاملاق ، كل ذلك يرجع الى شىء واحد هو ضعف الثقة بالله ، وأعوذ بالله ان تضعف ثقتى به أو يحل فى قلبى اليأس من فضله •

وكذلك كان يمضى فى طريقه هذه ، لا يفكر فى عاقبة ، ولا يحفل بموعظة ، ولا يسمع لنصيحة ، وانما هو مندفع فى حياته واقتضاء لذاته المباحة ، كما يندفع السيل الى الوجه الذى دفع اليه • فلا غرابة فى أن تشغلنا حياته هذه عن حياة ابنه خالد وقد كانت ضئيلة نحيلة فى ظل هذه الحياة الضخمة العريضة التى تندفع أمامها لا تقف عند شىء ولا تلوى على شىء • وقد كان خالد مع ذلك حين عاد من القاهرة بعد أن رد امرأته وابنتيه

الى حميه مقسم النفس بين نوعين من الشعور ، فقد كان فى نفسه شعور بحزن مقعد حاول هو أن يفهمه فلم يستطع ،ولكن فهمه مع ذلك يسير • كان حزينا أيسر الحزن لفراق امرأته التى عاشرته أعواما ورزقته ابنتين ، ولم تره فى سيرتها معه الا خيرا • وكان حزينا لانه كان ينتظر لنفسه حياة غير هذه الحياة وحظا غير هذا الحظ : كان يرجو ان يتيح الله له زوجة صالحة يحبها ويسكن اليها ويرى فيها متعة عينه وقلبه وأم ولده وربة بيته وصاحبته ، منذ بدأ هذه الطريق الى ان ينتهى منها • ولكن الله لم يتح له هذه الزوج • وقد رضى مع ذلك بما قسم الله له ، ورآه نعمة وفضلا • ولكن الله أبى أن يتم عليه هذه النعمة وأن يكمل له هذا الفضل ، فكشف له الغطاء عن قبح امرأته ، وامتحنه بهذا القبح حينا ، فكاد يخفق في الامتحان • ولكنه حاول ان يثبت له ، وكاد يخرج من المحنة ظافرا لولا أن الله قد ابتلاه بمحنة أخرى ، فأغرى بامرأته جنية البيت ، تلك التى تسكن حنايا السلم والتى جعلت تتراءى لها متى خلت الى نفسها فتغرها وتضلها وتلقى فى روعها الاباطيل حتى أفسدت عليها أمرها ، وسلبتها ما كان لها من عقل ، واذا هو مضطر – بعد أن ردها الى أبيها – الى هذه الحياة الفارغة المؤلمة ، حياة الوحدة ، فقد كان على كل حال يأنس الى امرأته فيرى فى عشرتها راحة وروحا • وقد كان ينعم بطفولة ابنتيه ويرى فى ابتسامتهما أملا ونعيما ، واذا هو قد حرم هذا كله ورد الى وحدته الاولى • بل أين وحدته الان من وحدته قبل أن يتزوج ، فقد كان بين أم ترأمه وتحنو عليه ، وبين أب يحبه ويؤثره بالكرامة • فأما الان فهو غريب فى دار أبيه بين هؤلاء الضرائر اللائى لا ينظرن اليه ولا يحفلن به ، لانه لا يغنى عنهن شيئا فيما يكون بينهن من تنافس وتباغض وخصام ، وبين هؤلاء الصبية الذين يكثرون فى كل يوم وينبتون كما ينبت العشب فى الارض لا يدرى كيف جاءوا • فأما أبوه فقد كان

عطوفا عليه حفيا به أيام محنته ، فلما بعد به العهد ، شغل عنه بهذه الهموم الكثيرة التى لا يتركها فى الدار اذا غدا الا ليلقاها فى المتجر ، ولا يتركها فى المتجر اذا راح الا ليلقاها فى الدار ، وهو سعيد كل السعادة ان تركت هذه الهموم له طريقه حرة بين داره ومتجره ، ولم تنتظره فى هذا الشق أو ذاك من أثناء الطريق ، ولم يخرج له بعضها من هذا العطف أو ذاك من أعطاف المدينة • فهذا نوع من الشعور الذى كان يجده خالد عند ما آب من القاهرة • ولكنه كان يجد نوعا آخر من الشعور ليس أقل من هذا النوع تأثيرا فى قلبه وتأثيرا فى حياته العاملة بنوع خاص ، فقد كان يشعر كأن حملا ثقيلا ألقى عن عاتقه ، وكأن شيئا من الراحة والامن رد الى قلبه • ذلك أن لقاءه امرأته كل يوم مصبحا وممسيا ، ونظره الى ابنتيه وما كان بينهما من اختلاف ، وموازنته بين ابنتيه وأمهما كل ذلك كان يسوءه ويؤذيه، فقد أراحه الله من هذا السوء ورد عنه هذا الاذى ، وأتاح له حياة فارغة ، تؤذيه من غير شك ، ولكن لا كما كانت تؤذيه حياته تلك الملىء • وكذلك كان خالد يضطرب بين الحزن والرضا وبين القلق والامن • وكان اذا أحس الرضا صلى ودعا وقرأ القرآن حامدا لله على نعمته ،واذا أحس السخط صلى ودعا وقرأ القرآن مستعينا بالله على نقمته وكان أشد ما يخاف أن يغرى به الشيطان فى وحدته على نحو ما كان يغرى به قبل أن ترحل عنه زوجه ، فكان يكثر من القراءة والدعاء والصلاة تحصنا من هذا الشيطان • ولكن الله صرف عنه الشيطان صرفا تاما ، فكانت وحدته نقية حتى من التفكير فى الاثم ، وكانت عزلته طاهرة حتى من الشعور بأن له غرائز يجب أن ترضى • وقد هم أن يستأنف حياته الاولى فيختلف الى المساجد ويتبع حلقات الذكر ويواظب على مجالس الوعظ ، ولكنه لم يجد من نفسه نشاطا الى هذه الحياة ،وانما وجد من نفسه شوقا الى عمل أحسن غناء وأقرب نفعا من هذه الحياة المشردة • وقد ألقى فى روعه ان التقرب الى الله لا يكون

بالاختلاف الى هذه المساجد والحلقات ومجالس الدرس والوعظ فحسب ، وانما يمكن أن يكون بأن يظل الانسان على ذكر من ربه دائما ، يذكره اذا خلا الى نفسه ، ويذكره اذا لقى الناس ويذكره حين يقدم على العمل أو يحجم عنه ، فتكون خشيته لله هى التى تحمله على الاقدام أو الاحجام . وكان خالد على ذكر من ربه دائما ، حتى ان أيسر انفعالاته كان يترجم عنه بهذه الكلمات التى تجرى بها ألسنة الناس كثيرا ، ولكنها لا تصدر عن قلوبهم الا قليلا ، فكان اذا أنكر شيئا أو أسخطه شيء قال: سبحان الله ، واذا رضى عن شيء أو سره شيء قال : الحمد لله ، واذا أعظمه أمر يسر أو يسوء قال : الله أكبر ، واذا أحس من حوله شرا يدنو منه أو يبعد عنه قال : لا اله الا الله . وكان الناس يحبون خالدا فى المدينة ويعجبون به ويودون لو أن أباه ترك له تجارته وفرغ هو لما يعنيه من أمر دنياه وأمر دينه . ولكن أباه كان شديد النشاط لم يشعر بعد بالضعف ، ولم يحتج بعد الى الراحة . وهم خالد أن يعين أباه على تجارته فلم ير من أبيه ابتهاجا بهذا العون ، ولم ير من نفسه ميلا الى التجارة . وكان له ابن عم لم نتحدث عنه الى الآن ، ويظهر أننا سنكثر الحديث عنه منذ الآن . كان له ابن عم يدعى سليما ، توفى عنه أبوه محمد ولما يبلغ السنتين من عمره ، فكفله عمه على من بعيد ، يقوم بحاجته ويشمله ويشمل أمه خديجة بالبر المتصل . ولكن خديجة توفيت عن ابنها ولما يتم العاشرة من عمره ، فكفله على من قريب ، ضمه اليه وأقره فى داره واتخذه لخالد أخا ، فكان يقسم بينهما حبه وعطفه وبره . وتلقت أم خالد هذا الصبى لقاء حسنا ، فبرته ورفقت به كما كانت تبر ابنها وترفق به . ورحم الله أم خالد ! فقد كانت خيرة من جميع نواحيها ، ولم تكن أم خالد اذا تحدثت الى ابنها عن سليم تقول له : ابن عمك قال كذا أو كذا أو فعل كذا أو كذا ، وانما كانت تقول له : أخوك قال أو فعل . وكان سليم

يكبر خالدا بثلاثة أعوام ، فكانت أم خالد تلقى دائما فى روع ابنها ان سليما أخوه الاكبر وان له عليه حق الكبير على الصغير وقد أنفق خالد صباه وهو مؤمن بأن سليما أخوه ، لم يتبين حقيقة الصلة بينهما الا حين تقدمت به السن شيئا . ولكن ذلك لم يغير سيرته مع سليم قليلا أو كثيرا . أحبه دائما ، وأكبره دائما ، ووقره دائما ، وآثره دائما على اخوته وأخواته بعد أن كثروا ، فلم يكن يولى أبناء العلات من اخوته واخواته الا ميلا قليلا وعطفا معتدلا ، فأما سليم فقد كان له وده كله واخاؤه كله ، حتى كان الناس يضربون المثل بما كان بين هذين الشابين من تعاطف ومودة . وقد تتابعت الايام والاشهر والاعوام ومضى جيل من الناس وأقبل جيل، فلم يكد الجيل الطارىء يشك فى أن خالدا وسليما أخوان أبوهما على وأمهما تلك التى يقسم لها على بعد ان ماتت يومها فيما يقسم من أيامه بين نسائه . وكان الشيوخ يبسمون فى حنان ورضا اذا سمعوا أحاديث الشباب بذلك ، وقلما كانوا يردونهم عن هذا الخطأ الذى يصور مثلا نادرا للمودة والاخاء . وقد بعدت الاسباب شيئا بين هذين الصديقين الاخوين حين بلغ سليم رشده وأسلم اليه على ما ترك له أبوه ، ولم يكن شيئا ذا غناء فقد جد الفتى واجتهد وأصلح من أمره ، واتخذ لنفسه زوجا أحبها وأحبته ، وأقام مع امرأته فى دار خاصة به مقصورة عليه ، آذى ذلك عمه بعض الشيء أول الامر ، ثم اطمأن اليه بعد ذلك . وكانت زبيدة زوج سليم معتدلة الجمال ، ولكنها كانت خفيفة الروح كثيرة المرح والدعابة فى براءة وطهر وخفر . وكانت أسباب المودة قد اتصلت بينها وبين نفيسة على ما كان بينهما من اختلاف فى النشأة والتربية ، ومن اختلاف فى المنظر بنوع خاص ، فقد نشأت فى القاهرة ، ونشأت مترفة فى بيت ثروة وغنى ، على حين نشأت زبيدة فى المدينة وفى أسرة لا تكاد تبلغ الطبقة الوسطى من الناس . وكان الصديقان الاخوان

سعيدين بهذه المودة المتصلة بين زوجيهما ، ينتظران منها خيرا كثيرا . وآية ذلك أن « جلنار » لم تكد تبلغ الشهر السادس من عمرها حتى خطبتها زبيدة لابنها سالم ، وكان سالم فى الثانية من عمره . وتضاحكت المرأتان لهذه الخطبة وقالت نفيسة لصاحبتها : انك لتسيئين الاختيار لابنك ، فأين أنت من سميحة وهى على ما ترين من جمال ورواء ؟! . قالت زبيدة ضاحكة : ان سميحة أكبر من سالم ، وانى أرى البركة فى جلنار — وكانت تنطق « جلنار » — وان اسمها يعجبنى فانه من أسماء « الذوات » ، وسيسعدنى ان أسمع ابنى يدعو زوجه فيقول : يا جلنار ، فأما سميحة فاسم بلدى كاسمك وكاسمى وأى فرق بين سميحة وحميدة وخديجة . قلت لك : انى أخطب جلنار ، ولن يتزوج ابنى الا جلنار .

وكان الصديقان الاخوان قد جلسا غير بعيد ، فلما سمعا هذا الحوار أعجبهما . قال خالد لسليم : أتسمع ؟ قال سليم : أسمع . قال : أرضيت ؟ قال سليم : رضيت . قال خالد : فامدد يدك ولنقرأ الفاتحة . فبسط سليم يده ، وتصافح انرجلان وقرآ الفاتحة . ولم تشك الاسرتان منذ ذلك الوقت فى ان سالماوجلنار زوجان ،ولاسيما حين سمع على هذا النبأ فأقر الخطبة وبارك الخطيبين ورفع الامر الى الشيخ فأقره ودعا للعروسين ، وانتهى النبأ الى عبد الرحمن فى بعض زياراته للمدينة . فقال لسليم وهو يبتسم : فان ابنك ابنى منذ اليوم

أقبل خالد ذات يوم بعد محنته على صديقه وأخيه ،فتحدث اليه فى شىء من أمن وثقة وقال له فيما قال : انه ضيق بالحياة التى يحياها ، فقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره وليس له عمل يطمئن اليه ويكسب منه قوته . وقد تركت له أمه شيئا ولكنه لا يدرى أين هو فقد اختلط بمال أبيه ، وأبوه لا يبقى على شىء . وقد أحب ان يعمل مع ابيه فى التجارة فلم يجد من نفسه ولا من أبيه ارتياحا الى ذلك . وهو لا يشكو من أبيه بخلا

ولا تقتيرا ، ولا يذكر أن أباه قد أنكر عليه تصريحا أو تلميحا هذه الحياة الفارغة التى يحياها ، ولكنه هو ينكر هذه الحياة أشد الانكار ويمقتها أعظم المقت . وقد أخذت أسرة أبيه تعظم وتمتد ، وأخذ بنوه وبناته يكثرون ، وما يحب أن يرزقه أبوه كما يرزق هؤلاء الصبية الصغار ، أو كما يرزق هؤلاء النساء المحمقات .

قال سليم : أما انصرافك عن التجارة فانى أراه الخير كل الخير ، فليس لك ولا لى ولامثالنا فى التجارة أرب . انا لم نخلق لها أو قل : انا خلقنا لتجارة قد انقضى عهدها . ألا ترى الى هذه المتاجر الجديدة ! أين منها متجر ابيك ومتاجر اصحابه الشيوخ ! . صدقنى ! ان مثلك ومثلى من الشباب ينبغى ان يتخذوا لانفسهم اعمالا جديدة . ألا ترى الى هذه المناصب الحكومية الكثيرة فى المديرية والمراكز والمحاكم والدائرة السنية ! ان كثيرا من الشباب يأتون من القاهرة أو من أقاليم غير اقليمنا يعملون فى هذه المكاتب والدواوين ، فما لنا لا نعمل كما يعملون !!

قال خالد : فانا لم نهيأ لعمل الحكومة . قال سليم :فانا نحسن القراءة والكتابة والحساب ، ولسنا بالمغفلين ولا بالحمقى . وما اريد ان يكون احدنا مديرا او مأمورا ، وانما يكفيك ويكفينى منصب الكاتب فى هذا الديوان او ذاك .. أما أنا فأحب ان أكون كاتبا فى المديرية . قال خالد : وأما أنا فأحب ان أكون كاتبا فى المحكمة الشرعية . قال سليم وهو يضحك : طبعا بين المفتى والقاضى والمأذون . قال خالد : بين العمائم على كل حال . ثم سكت الفتيان حينا ، ثم قال خالد لصاحبه : ان هى الا احلام يا سليم ، فقد علمت ان هذه المناصب لا تنال الا بالواسطة . قال سليم وهو يضحك : ألستم تقرءون فى أورادكم : « اذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط » . قال خالد : لا تعبث بأورادنا فانى اخاف

عليك عاقبة هذا العبث . قال سليم : فانى لا اعبث بشئ ، وانما ابحث عن الواسطة وقد وجدتها . قال خالد : وجدتها؟ وما عسى ان تكون ؟ قال سليم : كلمة من شيخنا فى امـــرك وأمرى الى الباشا تبلغنا ما نريد .

ولم يأت المساء حتى كان الفتيان قد راحا الى الشيخ فأسرا اليه امرهما . فلما استمع لهما صمت لحظة ثم قال : افعل ان شاء الله ، ولكن استعينوا على قضاء حاجاتكم بالكتمان . ولم تمض ايام حتى امتلأ قلب على سرورا وبشرا ، واذيبت مقادير هائلة من السكر فسقيت للاغنياء والفقراء جميعا ، وأقيم الذكر فى بيت على وذبحت الذبائح وطعم الناس وكثرت قراءة على لبعض الادعية لانه خاف على نفسه وعلى ابنيه من حســـد الحاسدين ، فقد اصبح سليم كاتبا فى المديرية يسعى بين الوكيل والمدير ، واصبح خالد كاتبا فى المحكمة الشرعيـــة يجلس بين القاضى والمفتى ،ويتلقى من المأذونين صكوك الزواج والطلاق بين حين وحين ، وقد رزق كل واحد منهما راتبـــا شهريا قدره اربعة جنيهات .

أنجز الشيخ وعده ، فزار القاهرة واقام فيها اسبوعا ، واكرم عبد الرحمن فنزل عليه ضيفا ، وفرق اصـــحابه فى المدينة تخفيفا على مضيفه ، فقد كانوا اكثر من ان تسعهم دار واحدة . ولكنه استبقى معه خمسة او ستة من اصفيائه الذين كان يحرص دائما على ان يلزموه . وقد اراد عبد الرحمن ان يؤوى اصحاب الشيخ جميعا ، ولكن الشيخ رده عن ذلك ردا عنيفا ، وقال : لا يكلف الله نفسا الا وسعها . قال عبدالرحمن فى شىء من الاستحياء : فالامر لك يا سيدنا ، ولكنك ستكرمنى بأن تصلى ويصلى اخواننا عندى العشاءين ، وبأن تقام فى دارنا هذه حلقة الذكر . قال الشيخ : هو ذاك . ولم يكن معنى ذاك الا ان تقام الولائم فى دار عبد الرحمن مساء كل يوم يشهدها العشرات من الرجال ، والعشرات الكثيرة ، منهم من هبط الى القاهرة مع الشيخ ، ومنهم من كان يقبل لزيارة الشيخ من القاهرة او من المدن والقرى المجاورة لها . وقد نهض عبـــد

الرحمن بهذا الحق كأحسن ما ينهض به الرجل الكريم ، فكان اذا أصبح غدا خدمه الذين استأجرهم لهذه الفرصة على الشيخ واصحابه بالطعام ، ثم يخرج مع الشيخ واصفيائه فيزورون الموتى فى قبورهم والاحياء فى دورهم ، ويصلون الظهر فى مسجد من مساجد اهل البيت ، ثم يعودون الى دار عبد الرحمن حيث ينتظرهم الغداء ، الا ان يكون الشيخ قد استجاب لدعوة بعض اصدقائه من علماء القاهرة واغنيائها . فأما العشاء والصلاة الليل وحلقات الذكر فكان هذا كله قد اكرم به عبد الرحمن . والشيء الذى لا يشك فيه هو ان اتباع الشيخ وما كان اكثرهم – لم يتحملوا نفقة ما اقاموا فى القاهرة ، بل لم يتحملوا نفقة منذ تركوا المدينة حتى عادوا اليها . فما كان الشيخ ليقبل ان يرزأ احد من اصحابه فى ماله قليلا او كثيرا وهو يرافقه .

وكانت مجالس الشيخ في دار عبد الرحمن رائعة حقا ، يمتلىء لها قلب المضيف غبطة وسرورا ، فكان الشيخ اذا صليت العصر اتخذ مكانه فى صدر هذا الفناء الذى كان ينبسط امام الدار ، واخذ اصحابه يفدون فيجلسون من حوله حتى يمتلىء بهم هذا الفناء . وقد احس اهل الحى ان فى دار عبد الرحمن عيدا او شيئا يشبه العيد ، وانه سيتصل ويمتد ايام ، فكان اغنياؤهم واوساطهم يقبلون ليشاركوا فى هذا العيد من قرب ، وكان فقراؤهم وذوو الحاجة منهم يقبلون ليشاركوا فى العيد من بعد ، يجتمعون جماعات متكاثفة خارج الدار وهم يذكرون الله ويسبحون بحمده . وقد ينجم من بينهم الشيخ ذو الصوت الحسن فيغنى لهم شيئا من شعر الصوفية ، او الفتى ذو الصوت العذب فيغنى لهم شيئا من اغانى القاهرة . وكانوا على كل حال فى فرح ومرح ، يطربون هذا الطرب الغريب الذى هو مزاج من العبادة واللهو البرىء معا . وكان الشيخ يعجبه ما يرى من ذلك وما يسمع ، وكان كثيرا ما يقطع حديثه

او حديث بعض جلسائه ليصغى الى هذا الصوت او ذاك ، وليسمع لما كان يبلغه من حديث القوم ، ولما كان يدعو اليه هذا الحديث غالبا من الضحك والصياح .

وكان زوار الشيخ من اهل المكانة فى القاهرة يقبلون لزيارته منهم من كان يقبل راكبا بغلته يسعى بين يديه غلام من غلمانه، ومنهم من كان يأتى راكبا عربة تجرها الخيول المطهمة . وكان مجيء هؤلاء الناس جميعا يثير فى نفوس هذه الجماعات كثيرا من العجب وكثيرا من الرضا ، وكثيرا من الفرح ايضا . ولم يكن بين هؤلاء الزائرين على اختلاف طبقاتهم ومراكزهم زائر الا طرح كبرياءه وطبقته ومركزه عند باب الدار ، ثم اقبل ساعيا متواضعا منخفض الرأس . فاذا دنا من الشيخ حياه ولثم يده ، وجلس حيث يشير اليه الشيخ ان يجلس . وقليل منهم كان يستطيع ان يبدأ الشيخ بالحديث ، وانما كانوا جميعا يتخذون مجالسهم فى صمت ، ويستقرون فيها لا يأتون حركة، ولا يديرون السنتهم فى افواههم ، الا ان يدعوهم الشيخ الى شيء من ذلك بما يلقى عليهم من سؤال او يسوق اليهم من حديث .

وكانت نفس الشيخ تصفو فى مجلسه هذا للناس جميعا صفاء ممتازا ، يصل الى قلوبهم فيملؤها حبا واكبارا . وكان صوته يعذب عذوبة رائعة تخلب اسماع الذين يحيطون به ويصغون اليه . وكثيرا ما كان الشيخ يفاجئهم مفاجآت تملأ قلوبهم روعة وايمانا ، فهو يتحدث الى فلان او فلان من جلسائه فى شؤونه الخاصة او فى الشؤون العامة ، ولكنه يقطع حديثه فجأة ويطرق اطراقة خفيفة ، ثم يرفع الى الناس وجها مشرقا كأنه القمر ، ويقول فى صوت مرتفع شيئا : حدثنا فلان قال:

حدثنا فلان ، ويمضى بسنده متصلا حتى يبلغ النبى (ص) ثم يروى حديثا طويلا او قصيرا ، ثم يأخذ فى تفسيره وتأويله فى لهجة المؤمن الصادق ، ولغة الرجل الذى يعرف كيف يصل

الى قلوب الناس ويبلغ افهامهم ، على ما يكون من اختـــلاف حظوظهم فى الثقافة والعلم ، واذا القلوب تخفق ،واذا النفوس تذعن ، واذا دموع تنهل ، واذا عبرات تحتبس فى الحلوق والشيخ ماض فى حديثه وتفسيره ، حتى اذا بلغ من ذلك مايريد ألقى على جلسائه نظرة تحيط بهم جميعا وتلا قول الله عزوجل: « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » . ثم يطرق لحظة ثم يرفع رأسه ويتلو الآية الكريمة : « ان الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . ثم يرفع صوته بهذه الكلمات وجلساؤه معه : « اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون » .

واذا ذاك يكون المؤذن قد دعا الى صلاة المغرب ، فينهض الشيخ وهو يقول : المغرب جوهرة فالتقطوها . فاذا صـــلى وصلى الناس معه ودعا فقصر فى الدعاء ، مشى الى المائدة ومشى معه الضيف جميعا . وقام عبد الرحمن كأنه الجنى يشرف على طعامهم داخل الدار ، وعلى عشاء هذه الجماعات المتكاثفة خارج الدار ، وينفق أولئك وهؤلاء فى طعامهم واحاديثهم وقتا غير قصير . ثم يدعو الشيخ عبد الرحمن ويسأله باسما : الا تظن أنه قد آن لك أن تستريح ؟ فيقول عبد الرحمن : وأى راحة آثر عندى من هذا ! ولكن صلاة العشاء قد وجبت ياسيدنا . يقول الشيخ : الليل كله وقت لصلاة العشاء ، ثم ينهض مع ذلك متثاقلا فيخطو خطوات لا يلبث بعدها ان يسترد نشاطه ويعود شابا فتيا ، واذا هو يقيم الصلاة ويؤم الناس ، فاذا أتم الفريضة اكثر من التنقل ، ثم يتحول عن القبلة ويأخذفى بعض الحديث ساعة او بعض ساعة يستخفى اثناءها عبـــد الرحمن فلا يراه احد . ثم ينظر الشيخ فاذا عبد الرحمن ماثل بين يديه ، فيقول : الان اقيموا حلقة الذكر .

ولم يعرف عبد الرحمن فى حياته كلها شقاء كالذى عرفه بعد ان قفل الشيخ واصحابه راجعين الى المدينة . فقـــد كان حق هذه الزيارة الكريمة المباركة ان تتم قبل اعوام طـويلة حين كانت تجارة عبد الرحمن الضخمة رابحة ، وحين كانت ثروته العريضة نامية . فأما فى هذه الايام التى كسدت فيها التجارة وتضاءلت فيها الثروة ، وثقل فيها الرجل عن السعى وضعف عن احتمال الهم الملح والجهد الثقيل ، فان هـــذه الزيارة الكريمة المباركة قد تملأ قلب المضيف غبطة وسرورا، وقد تشيع ذكره والثناء عليه ، وقد ترفع مكانه فى الجنـــة درجات ، ولكنها بعد هذا كله تكلفه من النفقة مالا طاقة له ولا قدرة له عليه . وقد جد الرجل مع ذلك حتى نهض بالحق ، وأدى ما استتبعه هذا الاسبوع من دين . ولكنه لم يكد يفرغ من ذلك حتى احس الجهد وبلغ منه الاعياء ، فلزم داره ولم يبرحها الا حين دعى الى رضوان الله بعد شهور .

- ١٢ -

لم تعرف المدينة قط عاما كهذا العام ، امتلأ فيه شهر الصوم بالخير والبركة وبالحب والتواصل ،وبذكر الله والعكوف على طاعته ، حتى لم يشك الفقير فقراً ، ولم يحس البائس ضراء، ولم يجد الغنى غرورا بثروته ولا فتنة بماله وجاهه انما شاع فى المدينة شىء من الدعة والامن والامل والرخاء ، فصام الناس مخلصين لله فى صومهم ، وقد اطمأنوا جميعا الى انهم سيفطرون اذا وجبت الشمس كما لم يتعودوا ان يفطروا ، وسيؤدون صلاتهم على احسن ما تؤدى الصلاة ، وسيسمعون القرآن كأحسن ما تكون تلاوته وترتيله ، وسيعودون الى بيوتهم فينامون نوما هادئا مطمئنا ليستقبلوا يوما راضيا سعيدا .

وكان الشيخ مصدر هذا كله ، فقد عاد من القاهرة فى هذا العام كما تعود ان يعود من اسفاره ، فاحتجب عن اصحابه ثلاثة ايام . ثم ظهر لهم فى اليوم الرابع ، فقال لهم وسمع

منهم ، ولكنه قال لهم اثناء السمر : قد اظلنا شهر الصوم ثم التفت الى خالد وقال ضاحكا ، وما ارى قاضيك الاسيأمرنا بالصوم بعد غد . ثم اطرق ساعة ورفع رأسه وقال : صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فان غم عليكم فأكملوا شعبان ثلاثين يوما . وما أرى أنه سيغم علينا غدا ، وما ارى أننا سنكمل شعبان ثلاثين يوما . سنصوم بعد غد اذا ، فأذنوا فى الناس ، وليبلغ القريب منكم البعيد فى المدينة : أن من شاء أن يكرمنى فهو ضيفى اثناء الصوم كله. فلما سمع جلساء الشيخ حديثه هذا وجموا له شيئا كأنهم يعجبون لما سمعوا ، وينكرون هذه الدعوة العامة . ولكن الشيخ قال فى تؤدة وهدوء : ان الذين صحبونى منكم الى القاهرة يعلمون ان يدى لم تمتلئا قط بالخير والنعمة كما امتلأتا فى هذه الرحلة . والذين لم يصحبونى الى القاهرة قد رأوا من غير شك هذه السفن الكثيرة الموقرة التى القت مراسيها على الشاطىء وارسلت الى ما كانت تحمل من انواع الهدايا وضروب البر . ولست ادرى ماذا اصاب الناس فى هذا العام ، فقد مرضوا كلهم بالكرم ، وحرصوا كلهم على ان يعطونا مما اعطاهم الله ، فاجتمع لنا من ذلك مالا نستطيع ان نستنفده الا ان يشاركنا الناس فيه ، وانما هو مال الله ، فيجب أن يرد الى الله . وهم بعضهم ان يتكلم ، فابتدره الشيخ قائلا : هون عليك ! فانا لم نكن ننتظر هذا الخير لنكفل لابراهيم بعدنا حياة راضية ، وابراهيم بعد خليفتى فيكم ، وأنتم اوصيائى عليه . هنالك ارتج مجلس الشيخ وضج الناس بالبكاء ، والشيخ ينظر اليهم باسما ويتلو السورة الكريمة : « **اذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا** » . ثم يقول بعد اطراقة خفيفة :لقد رأيت رسول الله (ص) فى المنام . وهنا يزيد القوم ضجيجا وعجيجا بالبكاء ، فيرفع الشيخ صوته : لقد رأيت رسول الله

(ص) فى المنام ، وقد قال الغزالى ان النبى لا يرى فى المنام. والله ما هكذا كان الامل فيك يا غزالى ! لقد رأيته بعيني رأسى هذا راكبابغلته . وسمعته يتلوهذه السورة فىصوت ماسمعت قط صوتا يشبهه حلاوة وعذوبة .فلما افقتمن نومى ذكرت ان الله عز وجل نعى الى سيد الخلق نفسه حين انزل عليه هذه السورة ، فأولت رؤياى هذه كما أولسيد الخلق نزول السورة عليه . ثم سكت وأطرق ، وسكت القوم مثله وأطرقوا كأن على رءوسهم الطير ، ثم رفع رأسه وتلا : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى ارض تموت » صدق الله العظيم

فلما كان الغد امتلأت المدينة وما يليها من القرى والضياع بأن الناس جميعا ضيف الشيخ اثناء شهر الصوم .واستجاب الناس جميعا لدعوة الشيخ . فأما اغنياؤهم فكانوا يبتغون البركة والكرامة ويؤثرون رضا الشيخ . وأما فقراؤهم وذوو الحاجة منهم فكانوا يؤثرون البركة والكرامة ويؤثرون ارضاء حاجاتهم ايضا . ويقول بعضهم لبعض : ان بركة الشيخ لشاملة ، سنصوم هذا العام دون ان نشقى بالعمل أثناء الصوم ، ودون ان ننتظر معونة تأتى او لا تأتى من القادرين .

وكان الشيخ وخاصته يتتبعون اصحاب الاسر من اوساط الناس وفقرائهم فيكرمونهم فى بيوتهم لا تنقطع عنهم مؤونة الشيخ، تأتيهم مصبحين وممسين . ولولا ان الباشا كان من اتباع الشيخ ومريديه والمؤمنين له المطمئنين اليه لشك فى هذا الكرم ، ولاشفق من عواقبه على السلطان . ولكن الباشا نفسه كان من اسرع الناس استجابة لدعوة الشيخ واكثرهم ترددا على مائدته . ولم يهمل ان يدعو الشيخ الى قصره مرتين ولم يهمل الشيخ ان يستجيب لهذه الدعوة كما تعود ان يفعل، وان يستكثر من الاصحاب والاتباع ، ويقول للباشا : فأما وقد دعوتنى فسأرزؤك فى مالك رزءا عظيما . ولم يكن الشيخ يهمل ان يزور الاغنياء من اهل المدينة ، ويستجيب لهم

اذا دعوه ، فيفطر على موائدهم ويصلى عندهم العشاء والتراويح ويسمع لقرائهم . وكان الشيخ قد دعا قراء المدينة جميعا ليقرأوا فى داره وفى دور اصحابه ، حتى لم يدع منهم قارئا حسن الصوت الا ضمن له تلاوة القرآن اثناء شهر الصوم ، وحتى احتاج الى ان يدعو قراء من المدن القريبة يقرءون عنده . ولم يدع اثناء هذا الشهر احدا من اصحابه الا اختصه بشيء من حديث .

وفى ذات ليلة كان يتحدث بين سورتين من سور القرآن والخدم يطوفون بقهوة البن والقرفه على جلسائه ،واذا هو يقطع حديثه فجاءة وينظر الى اثنين من أصحابه كانا يتحدثان ، أحدهما على أبو خالد ، والاخر رجل من أصفياء الشيخ ومن أغنياء الريف القريب يقال له الحاج مسعود . نظر اليهما نظرة نافذة قطعت حديثهما وردتهما الى الصمت ، وقال لهما : فيم تتحدثان ؟ فهم على أن يجيب ، ولكن الشيخ لميمكنهمن الجواب وانما قال : استمع لى يا مسعود ! احذر صديقك عليا هذا ، انه يدور حولك لتزوجه احدى بناتك ، فلا تفعل فانه مزواج مطلاق ، ولكن عليك بابنه خالد ، فان فيه البركة وعنده الخير ، وما أرى الا أنه سيصهر اليك وسيخطب صغرى بناتك انى ما زلت اذكرها ، انها لخيرة مباركة ، فان فعل فلا ترده خائبا ، وان لم يتح لى أن أزوجهما فسيزوجهما ابنى ابراهيم فأما على فبهت وضحك ضحكا سخيفا . وأما الحاج مسعود فنهض من فوره وسعى الى الشيخ فقبل يده وبللها بدموعه ، وكان رجلا رقيق القلب بكاء ، وقال فى صوت تقطعه العبرة: بل يبقيك الله ويطيل عمرك يا سيدنا وتزوج سائر بناتى كما زوجت من تزوجت منهن . قال الشيخ وهو يضحك : يا غلام! قهوة سوداء للحاج مسعود ، فما يرقيء عبرته هذه الا القهوة السوداء . اجلس يا مسعود بارك الله عليك وبارك لك فى بناتك وفى ذريتك ، ثم استأنف حديثه من حيث قطعه

وجلساؤه يرون ويسمعون ويعجبون ويقول بعضهم لبعض : لقد نالها الحاج مسعود ! من يعدل الحاج مسعود ! ليتنى كنت الحاج مسعود !

على أن شهر الصوم لم ينته دون ان يحمل الى الشيخ والى أصحابه نبأ محزنا ، فقد جاءهم من القاهرة نعى عبد الرحمن قبل أن ينقضى الشهر بثلاثة أيام . فلما أقبل على يحمل النبأ الى الشيخ بكى واسترجع وقال : تبارك الله ، لقد كنت أظن أنى سأسبقه فقد سبقنى . ثم سكت لحظة واستأنف حديثه فقال لعلى وابنه خالد : فانكما تذكران ماأعطيت عنكما من العهد قال : نعم . قال : فاذهبا الى القاهرة فأديا الواجب ، وضما اليكما نفيسة وابنتيها وأمها . ثم التفت الى على وقال له كالساخر منه الرائى له : ولا تنتظر مالا يا على فقد أتينا على مال عبد الرحمن كله حين زرناه ، وانصرف الان فانى مع خالد حديثا لاأحب ان تسمعه ولاأن ينبئك به . قال على وهو ينتحب: فانك ساخط على يا سيدنا . قال الشيخ : أعوذ بالله من ذلك! وانما أريد ان أتحدث الى خالد حديثا لا ينبغى ان يعلمه غيره انصرف مصاحبا . قال على : سأنصرف طاعة لامرك ، ولكنى لست راضيا . قال الشيخ : سترضى .

وخرج على متثاقلا كالحزيان . فلماخلا الشيخ الى خالد ،قال له : ستكون برا بنفيسة وأمها يا بنى . قال خالد : فقدأعطيت على ذلك عهد الله يا سيدنا ، وأنا أجدده . قال الشيخ : وأول البر بها أن تطلقها . فوجم خالد لهذا القول ، ولكن الشيخ مضى يقول : انها لا تصلح لك زوجا ولا تصلح زوجا لاحد ، وما ينبغى لها ان تحمل ولا أن تلد، فطلقها فتحسن اليها والى نفسك . انك ستتزوج ، وستتزوج من بنت مسعود ، وستتزوجها بعد عام أو عامين ، لانها لم تبلغ طور الزواج بعد فاذا تزوجتها فلا تفرض عليها ضرة ، فانها لن تحتمل الضرائر ولا تمسك نفيسة فى هذا الزواج العقيم ، ولا تكلف نفسك

عدلا لاتطيقه وقلما يطيقه الناس . طلق نفيسة يابنى واضممها مع ذلك الى أهلك ، وسر معها سيرتك مع أختك ، واستقبل حياتك مباركا موفورا . وترحم على كلما أصابك خير ،واستغفر لى كلما امتحنتك الايام بما تكره فانى لم آلك نصحا . ثم مسح رأسه وقبل بين عينيه وقال : انصرف راشدا ، فسنصلى ونقيم الذكر ، وسنذكركم فى صلاتنا ودعائنا ، وسنستنزل رحمة الله على عبد الرحمن .

وأتمت المدينة شهر الصوم كما بدأته سعيدة راضية ، واستقبلت عيد الفطر هانئة ناعمة ، ولكنها ارتجت وارتج معها الاقليم كله فى اليوم الثالث من أيام العيد ، فقد صلى الشيخ بأصحابه المغرب ، حتى اذا أتم الركعة الثالثة وجلس للتشهد لم يرع الناس الا أن رأوه يكب على وجهه قبل السلام ، فيسرعون اليه فاذا هو قد صار الى رضوان الله . ومنذ ذلك الوقت لم يشك أحد من أهل الاقليم فى أن الله قد آثر الشيخ بهذه الكرامة . فنقله الى جواره أثناء الصلاة ، وأقره فى جنته بين الصديقين والشهداء

-١٣-

صلى ابراهيم بأصحابه العشاء وسمع معهم القرآن وأقام لهم حلقة الذكر • فلما هم الناس ان يتفرقوا استبقى أصفياء أبيه، حتى اذا خلا لهم المجلس قال لهم فى صوته الهادىء : تعلمون أن الشيخ رحمه الله كان قد أزمع الحج من عامه هذا ، وكان عليه حريصا يريد ان يتم الحجة السابعة ، ولكن الله آثره برحمته قبل أن يبلغه هذه الامنية • وقد استخرت الله ورأيت أن أتم ما لم يتح له ، فأنا مستعد للحج اذا كان الغد ، وواهب ثواب هذه الحجة ان أثابنى الله عليها للشيخ • فمن أراد منكم أن يحج معنا فليتجهز من غده ، ومن كان ذا عيلة فان علينا نفقته ، فقد ترك الشيخ لنا خيرا كثيرا • ثم أطرق اطراقة ورفع رأسه وقال : وتحدثوا بذلك الى من شئتم من أصحابكم والذين يلونكم ، فانى لا أكره أن يكثر الحج على اسم الشيخ ، وأن أعين على أداء هذه الفريضة من عجز عن أدائها • فماذا ترون ؟ قالوا

كلهم : انما رأيت رشدا ، وقد خار الله لك فيما ألهمك ، وكلنا متجهز للحج من غده ، وكلنا واهب ثوابه للشيخ ان أثابه الله وكان أسرعهم الى الجواب مسعودا ، فقد حج مع الشيخ ست مرات ، وكان مزمعا ان يحج معه الحجة السابعة ، فلما توفى الشيخ فترت همته عن النفير • وها هو ذا يسمع ابن الشيخ يستأنف حديث الحج ، فلا تسل عما ملأ قلبه من رضا وما شاع فى نفسه من حبور • ولكن الدموع كانت تترجم دائما عن سروره وحبوره ، كما كانت تترجم دائما عن خشيته لله وخوفه منه ، وكما كانت تترجم دائما عن تأثر قلبه حين كان يسمع صوتا حسنا يتلو القرآن أو يغنى فى الحلقة بشعر ابن الفارض • فأما خطوب الدهر وأحداث الدنيا وهذه المصائب التى تلم بالناس فتفزعهم وتروعهم فقد كان يلقاها بقلب جلد ونفس ثابتة وعين شديدة البخل بالدمع • ولم يكن يبكى لامر من أمور الدنيا الا أن يرزأ فى ولد أو صديق فتذرف عيناه دموعا غزارا وقتا قصيرا ، كأنهما السحابة ، لا تكاد تجود ببعض مائها حتى تقلع ، واذا هو يتوب الى الله ويستغفره ، ويلوم نفسه لانها بكت على أمر من أمور الدنيا ، وليس فى أمور الدنيا ما يستحق البكاء • على ان عبرته لم تكد ترقأ منذ توفى الشيخ ، وأكبر الظن أنه لم يكن يرى فى وفاة الشيخ خطبا من خطوب الدنيا ، وانما كان يرى فيه خطبا عظيما من خطوب الدين ، فقد كان الشيخ رحمه الله مثلا رائعا للتقوى والورع وداعيا صادقا الى الله ورسوله ، لا يكاد يدعو حتى تهرع اليه القلوب وتذعن له النفوس ، ولا ينصرف المستمعون له الا وقد زاد مؤمنهم ايمانا ، وأقلع جاحدهم عن جحوده ، وهم مقصرهم فى ذات الدين ان يستدرك ما فات ان استطاع ، وان يستأنف حياة فيها رشاد وخير •

وكان الحاج مسعود مشفقا أشد الاشفاق أن يقصر ابراهيم عن غاية أبيه ، فقد كان يرى منه فى حياة الشيخ فتورا ونفورا

واقلالا من التردد على مجالس الشيخ وحلقات الذكر . وكان يحدث نفسه فى كثير من التردد والخوف بأن ابراهيم قد أطال المقام فى القاهرة ، والاختلاف الى الازهر ، والاتصال بشيوخه ولم يكن مسعود ينفر من شيء نفوره من الازهر وشيوخه ،فقد سمع منهم وتحدث اليهم ، ورأى فيهم ميلا الى التأويل واقبالا على التكلف ، وربما رأى من بعضهم ازورارا عن الشيخ ، فكان هذا كله يسيء ظنه فى الازهر والازهريين ، ويملأ نفسه اشفاقا على ابراهيم من لزومه لحلقات الدرس واستماعه لهؤلاء الشيوخ الاعلام . وقد اجترأ مرة على الشيخ فقال له فى لهجته القروية التى لم تكن تخلو من عنف حلو : ألا تنبئنى فيما ترسل ابنك الى القاهرة ليطلب العلم فى الازهر وعلماء الازهر يتكلفون الرحلة اليك ليأخذوا قليلا من علمك ، ومنهم هؤلاء الثلاثة الذين يلزمونك منذ أعوام لا يفارقونك ، والذين تشتد عليهم فى تأديبك لهم ، وتأخذهم بالعنف أكثر مما تأخذهم بالرفق وهم راضون بذلك متهالكون عليه ؟! فهلا أمسكت **ابنك وعلمته مما علمك الله وأدبته كما تؤدب هؤلاء النفر** ، وأعددته لخلافتك فى أصحابك كما أعدك شيخنا لخلافته فينا ! وهنا تحطم صوته وانهلت دموعه . فرحمه الشيخ وقال ضاحكا ما أنت وذاك يا مسعود ؟ أترانى كنت ابنا للشيخ ؟ قال مسعود : لا . قال الشيخ : أترى ان قد كان لشيخنا أبناء ؟ قال مسعود : نعم . قال الشيخ : ومع ذلك فقد صرف خلافته عن أبنائه وآثرنى بها ، فما يدريك ان ابنى سيكون خليفتى فيكم ؟ وهؤلاء الثلاثة الذين تتحدث عنهم لقد وعوا علم الازهر كله ، ثم جاءوا يطلبون ما عندى من العلم فدع ابراهيم يحفظ من علم الازهر مثل ما حفظوا ، ولك على أن أكون بتعليمه هنا حفيا ، وأن أعنف به فى التأديب كما أعنف بهؤلاء النفر ان رأيت فيه صلاحا لذلك الامر وقدرة على النهوض به . فلما رأى مسعود ان ابراهيم لم يكد يتم الاسبوع الاول بعد وفاة أبيه

حتى فكر فى الحج ودعا اليه ، ولم يفكر فى الحج لنفسه ، وانما فكر فى الحج لابيه ، رضيت نفسه واطمأن قلبه وسالت دموعه على لحيته غزارا . وابتسم الشيخ الشاب له كما كان يبتسم له أبوه من قبل ، وقال : كفكف دمعك يا مسعود ، ألا يمكن أن تنفق ساعة لا تذرف فيها دمعا ، ثم التفت الى رجل من أصفيائه كان فى آخر المجلس لم يظهر نشاطا شديدا للحج ، وانما أجاب كما أجاب الناس ،ولم يكن هذا الرجل الا عليا ، التفت اليه ابراهيم وقال : أما أنت يا على فمتخلف عنا . قال على : وكيف ذاك ؟ أتأمرنى بالتخلف ؟ قال الشيخ الشاب : لا آمرك به ، ولكن أنبئك بما سيكون من أمرك ، ستهم كمايهم غيرك حتى نرى انك مسافر معنا ، ثم نفتقدك فلا نراك ، ثم تعتذر الينا اذا انقلبنا ، لانك قد شغلت بمالك وأهلك . فان استطعت ان تعتذر منذ الان فافعل ، ولا تكلف نفسك مشقة لا تغنى ، ثم تضاحك وقال : انك حديث عهد بزواج . وكاد على يغضب ، ولكن كيف يكون الغضب على الشيخ، انما يغضب الشيوخ على مريديهم . وقد كظم على شيئا فى نفسه وانصرف متردد لا يدرى أيقدم على الحج أم يحجم عنه . ولم يكن الشيخ مخطئا فيما قدر من امر على ، فقد كان حديث عهد بالزواج ، يتزوج للمرة الثامنة بعد أن طلق من نسائه من طلق . وكانت عرسه فى هذه المرة فتاة لم تبلغ العشرين ، وكان بها مفتونا وبحبها متيما . فكان الذى أغراه بهذا الزواج هو شيخه رحمه الله حين عبث به ذات ليلة ، وقال لمسعود : انه سيخطب اليك احدى بناتك ، فلا تزوجه ان فعل ،وعليك بابنه خالد فان فيه بركة وخيرا ، هنالك ضحك على ضحكا سخيفا وانصرف وفى نفسه شيء ، ولكنه لم ينقطع عن التفكير فى أن يتخذ لنفسه زوجا شابة . ألم يكن قد طلق زينب ولم يمسك فى داره الا خديجة ومحبوبة وذكرى أم خالد ! فله الحق فى زواج رابعة ،

فما أسرع ما اهتدى اليها عند بعض عملائه من تجار المدينة ، وكان رجلا متواضعا ضئيل التجارة . فلما سعى اليه على ذو المكانة والجاه خاطبا ابنته « هناء » ، رأى فى ذلك شيئا من الشرف وارتفاع القدر ، فقبل خطبته راضيا ، وزوجه مغتبطا، ولم يفكر فى أنه يهدى هذه الفتاة التى لم تبلغ العشرين الى شيخ قد ناهز الستين . على أن « هناء » لم تلبث ان استأثرت بعقل الشيخ وقلبه ، وتحكمت فيه تحكما لم يعرفه قط من احدى نسائه ، وكادت تصرفه عما فرض على نفسه من العدل بين أزواجه لولا أنه أخذ نفسه بالعنف واشترى رضا « هناء » عن هذا العدل بكثير من الهدايا والمنح ، فأحفظ ذلك زوجيه الأخريين ، وجعل منزله جحيما ، ولكنه احتمل هذا الجحيم ، وكان خليقا أن يحتمل أضعافه فى سبيل « هناء » .

ويجب أن نعترف بأن « هناء » على سحرها وطغيانها لم تستطع ان تغير من سيرة على مع ذكرى ام خالد قليلا ولا كثيرا ولولا ما كان من موت عبد الرحمن وسفرعلى الى القاهرة مع ابنه خالد ، ثم ما كان من موت الشيخ فجاءة لتحدث على الى الشيخ بهذا الزواج ، اولتندر الشيخ على على فى شأن هذا الزواج، وهذا الشيخ الشاب يعبث بعلى على هذا النحو ، فيثير فى نفسه شيئا يريد ان يكون غضبا ، ولكنه يستحى ان يسمى نفسه بهذا الاسم فلنسمه نحن فتورا . وكان فتورا ثقيلا حقا ، فقد أصبح على وقد صمم على ألا يتجهز للحج ، فهو مشغول بأهله حقا . ألم يتزوج منذ أسابيع ! فما تركه لامرأته أشهرا !والام يصير الامر بين أزواجه اذا تركهن ؟ وهو مشغـــول بماله ، فتجارته متأخرة كما رأيت . وقد صدق الشيخ حين قال له : لا تنتظر أن يترك لك عبد الرحمن مالا . فلم يترك عبد الرحمن مالا ، وانما ترك أربع نسمات قد نقلن الى المدينة ليعشن فى كنف على وابنه خالد . وسيحتجن الى نفقة بغير شك ،وستزداد أعباؤه ثقلا ، فلا بد من أن يعمل ، ويعنى بتجارته لينهض بهذه

الاعباء . وليس من شك فى أن خالدا يعينه على بعض أمره منذ أصبح موظفا . ولكن اين تقع معونة خالد من هذه البطون التى لا تمتلىء والافواه التى لا تشبع ومن هذه الـــدار التى كان يشبهها على بجرة لا قعر لها ، فلا سبيل الى أن تمتلىء !

وأمسى على من يومه ذاك فصلى مع الشيخ ، وشهد معـــه حلقة الذكر . فلما تفرق الناس أقبل على الشيخ مستخذياوهو يقول : لقد أنبأتنى بالحق أمس يا سيدنا . قال الشيخ : ألم اقل لك انك لن تستطيع ان تنفر معنا ! فأصلح من أمـــرك وانصح لأهلك ومالك ، وأقم على طاعة الله وابتغاء مرضاته ، وفكر فى أنك لم تؤد فريضة الحج بعد ، وفى أن من الحـق عليك أن تؤديها . وانى لأرجو ان أتاح لى الله حياة أن أحج لنفسى من قابل ، فاجتهد ان تصحبنى فى هذه الحجة . وخرج على راضيا كل الرضا ، فقد قبل الشيخ عذره فى غير مشقة ، وفتح له بابا واسعا من أبواب الامل ، فليصلحن من أمـره ، وليحسنن تدبير ماله ، وليحجن مع الشيخ فى العام المقبل . بينه وبين ذلك عام كامل تهدأ فيه ثورة الحب هذه التى كادت تفسد قلبه ، وكادت تجعنه عبدا لهذه الفتاة التى تسمى هناء . ايها لهناء كاسمها ، ان وجهها لجميل مشرق ، وان لها لقواما معتدلا . وانها لتحسن العناية به والحنو عليه ، وانها لتلقـاه بابتسام حلو شاب لم يعهده عند غيرها من النساء ، وان صوتها ليقع من قلبه موقعا عذبا كأنه قطرات الندى . ويروح على هناء فاذا دخل وجدها ساهرة تنتظره ،ولكنه لايلتفت اليها ولايلقى اليها حديثا ، وانما يستقبل القبلة فيركع ركعتيه ، ويتمتـــم بدعائه القصير ، ويأوى الى فراشه وهو يتلو آية الكرسى ، ثم يبتسم لزوجه ويقول : لقد كدنا يا هناء أن نفترق أشهرا ، ولكن الشيخ أذن لى فى أن أؤجل الحج عاما .

- ١٤ -

وعاد على وخالد بنفيسة وأمها وابنتيها من القاهرة بعد أن نظما ما كان قد ترك عبد الرحمن من اضطراب قليل ، وأديا من ماله ما أعجله الموت عن أدائه من الدين . ونظرا فاذا هاتان المرأتان لم ترثا عن عبد الرحمن الا داره الفخمة هذه ، ودنانير يمكن أن تحصى بغير مشقة ولا جهد . وقد تحدث على فى أن يبيع هذه الدار ، فبكت نفيسة ولم تقل شيئا ، وقالت أمها : لو عاش عبد الرحمن ما بيعت الدار ، فأعرض على عن هذا الرأى . وتحدث من الغد عن تأجير الدار ، فبكت نفيسة ولم تقل شيئا ، وقالت أمها : وترضى أن يسكن هذه الدار غيرعبد الرحمن ! وأين تنزل وينزل خالد حين تأتيان الى القاهرة ! وأين ننزل نحن ان أتيحت لنا العودة الى القاهرة ؟! ثم التفتت الى خالد وقالت : فستأذن لنا بأن نأتى الى القاهرة لنزور قبر عبد الرحمن ؟ قال على : سنأتى الى القاهرة جميعا لنزور قبر

عبد الرحمن . ثم أعرض عن تأجير الدار . وتهيأ القوم للسفر وأغلقت الدار . وجعلت أم نفيسة والعربة تمضى بها تلتفت وتطيل النظر الى دارها لا تقول شيئا ، حتى اذا انعطفت بها العربة فى بعض الطريق ولم تبق سبيل الى رؤية الدار ، اعتدلت المرأة فى مجلسها وقالت لخالد : فأين مفتاح الدار ؟ فانى احب الا يفارقنى . هنالك دفع اليها خالدمفتاحها وان شفتيه لتبتسمان وان قلبه ليتقطع حزنا .

وقد أقر على هاتين المرأتين وهاتين الصبيتين فى جناح من داره منعزل يوشك أن يكون دارا مستقلة . وكان حريصا أن يفرهن فى هذه الناحية ليعشن بمعزل عن هذه الضوضاء التى تمتلىء بها داره ، والتى تأتى من نسائه المختصمات دائما ومن بنيه وبناته الذين لم يكونوا يعرفون السكون . وقال خالد لابيه وهما يتحدثان فى ذلك : انه لرأى صائب . سيكن مستقلات أو كالمستقلات ، ولن ترى نفيسة السلم فليس فى هذا الجناح سلم ، ولن تلقى جنيةالبيت هذه المجرمة التىتسكن حنايا السلم وتسعى بالفساد بين الازواج . قال ذلك وهو يضحك ضحكا حزينا . قال على : وستقيم معهن . قال خالد : أما هذه فلا ، فان نفيسة لاتصلح لى زوجا ولا تقدر على عشرتى ألم تر اليها تحتجب من دونى ! انها لا تكاد تعلم بمقدمى حتى تلقى على رأسها ووجهها ما يسترهما ، وانها لا تتحدث الى الا همسا ومن طرف لسانها ، وانى لأوجه القول اليها فلا تملك أن تجيبنى ، وما أكثر ما تجيبنى عنها أمها وابنتاها ، وسأزورهن بين حين وحين ، وسأنهض بما لهن على من حقحتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وكذلك أقام هؤلاء النسوة فى طرف من أطراف الدار ، لا يكدن يسعين الى أهلها ، ولا يكاد أحد من أهلها يسعى اليهن . وكانت لأم خالد أمة سوداء قد أعتقها القانون ، ولكنها ظلت وفية لمولاتها . فلما ماتت وفت لسيدها خالد ووفى لها خالد،

فكانت تقوم على العناية به والاصلاح من أمره . ولم يكن خالد يألف فى هذه الدار الواسعة وبين هذه الاسرة الضخمة الا شخصين اثنين هما أبوه ولم يكن يلقاه الا قليلا ، ومولاته نسيم وكانت تتلقاه مصبحة بما يحتاج اليه ، وتتلقاه ممسية بما يحتاج اليه ، وتعكف على نفسها بين ذلك فى الدار لاتحفل بأحد ولا يحفل بها أحد .

فلما حمل هؤلاء النسوة من القاهرة وأقرزن فى طرف من أطراف الدار ، قال خالد لنسيم : ان كنت تحبيننى وان كانت فى نفسك بقية من الحب لمولاتك ، فقومى على العناية بهؤلاء النسوة وامنحيهن من حبك وبرك مثل ما تمنحيننى ، ولاتشغلى نفسك بى فانى أحسن تدبير أمرى . قالت نسيم وهى تضحك تحسن تدبير أمرك ـ وكانت تنطق الحاء هاء ـ وأنت لا تحسن أن تجد ثيابك ولا أن تلبسها الا أن تهيئها لك نسيم ! تحسن تدبير أمرك ! ومن يقدم اليك القهوة ؟ ومن يقدم اليك غداءك وعشاءك ؟ ثم ضحكت له بوجه كأنه وجه القرد ، ولكنه على ذلك كان جميلا فى عين خالد ، يحمله ما كان يغمره من حب وحنان . ضحكت له وقالت : سأخدمهن كما أخدمك ، فانى كنت اقضى يومى وليلى فارغة لا اعمل شيئا ، فقد اصبح لى عمل منذ الآن .

ولم تكد نفيسة تراها حتى اطمأنت اليها ، ووثقت بها الصبيتان وأحبتهما هى أشد الحب ، فما أكثر ما تمنت ان يكون لها ولد تعنى به ، فقد أرسل الله اليها ابنتين تعنى بهما .

ثم يعود الشيخ من حجه بعد أشهر ، ويهرع أهل المدينة وأهل الاقليم الى لقائه مقبلا ، والى زيارته وتحيته بعد ان استقرت به الدار . ويسعى على اليه فيمن يسعى ، فيلقاه الشيخ احسن لقاء ، ويدفع اليه سبحة ضخمة الحبات وهو يقول له : لقد ذكرتك فى مكة واستغفرت لك ، وسألت الله لك عفوا

وعافية فى المسجد الشريف ، وأنا أهدى اليك هذه السبحة على شرط ألا تفارقك عن ارادة منك ، وعلى شرط ان تدير ذكر الله عليها مرة فى كل يوم وتهب ثواب هذا الذكر لوالدى رحمه الله ..

فيكب على على يد الشيخ لثما وتقبيلا ، ويأخذ السبحة فيقبلها مرة ومرة ، وأصحاب الشيخ ينظرون اليه ويقول بعضهم لبعض همسا : لو قال الشيخ هذه المقالة للحاج مسعود لاجهش بالبكاء ، ولكن انظروا الى على ما أقسى قلبه ! ان وجهه ليبسم كأن الشيخ يداعبه .

ويقبل خالد لزيارة الشيخ فيمن أقبل ، فيلقاه الشيخ لقاء حسنا ويمنحه يده ليقبلها ، ثم يقول له : اذا فرغنا من هذه الزيارات فالقنى فان لى معك حديثا . ويسعى خالد الى الشيخ بعد أيام ، فاذا رآه الشيخ أدناه واستبقاه ، حتى اذا خلا اليه قال له : ألم أعلم أن أبى كان قد خطب لك بنت الحاج مسعود؟ قال خالد : بلى . قال الشيخ : فأين أنت من هذه الخطبة ؟ قال خالد فى شىء من استحياء . فان الحول لم يحل على موت عبد الرحمن . قال الشيخ : وصلتك رحم يا بنى وبارك الله عليك! ولكن لنقرأ الفاتحة ، فأما الزواج وزفاف أهلك اليك فاضرب لهما ما شئت من موعد ، و « منى » ما زالت بعد صبية . ثم صفق بيديه ، فلما أقبل الخادم قال له الشيخ : ادع لى الحاج مسعود . وأقبل الحاج مسعود ، فاستدناه الشيخ حتى أجلسه عن يمينه على كره منه ، فقد كان الحاج مسعود يحرص دائما على أن يقوم بين يدى شيخه الكبير ثم بين يدى شيخه الصغير، لا يجلس الا مأمورا . فلما استدناه الشيخ وأجلسه عن يمينه استعظم ذلك وأخذت دموعه تسيل . قال الشيخ : أماترحمنا من دموعك هذه آخر الدهر ! كفكفها ولو ساعة ، ابسط يدك فقد أنى لنا أن تنفذ وصية الشيخ . ثم بسط الحاج مسعود يده وبسط الشيخ يده فتصافحا ، وقرأ الثلاثة الفاتحة وان الحاج مسعود لينتحب بقراءته انتحابا .

-١٥-

وكان الحاج مسعود نادرة فى عصره وبيئته . كان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان مع ذلك يحفظ القرآن كأحسن ماتكون التلاوة ، لولا أن تلاوته هذه كانت تضطرب أحيـانا ، وربما انقطعت بهذا البكاء الذى كان يغلبه كلما قرأ آية فيها نذيرأو تبشير . وكان ابوه الحاج عمران اميا مثله ، او قل انه كان أميا كأبيه الحاج عمران . وكانت الامية مذهبا لهذا الشيخ من شيوخ الريف المصرى ، فقد أبى أن يرسل ابنه الى الكتاب.. وكان يقول : ينبغى ان ندع القراءة والكتابة والحساب لهؤلاء الاقباط الذين يغنون عنا بها فى كل مكان ما نحتاج اليـه . علينا أن نتجر ونثمر المال ان كنا من أصحاب التجارة ، وان نزرع ونستثمر الارض ان كنا من أصحاب الزرع ، وان ننهب ونملأ الارض فسادا ان لم نكن من أولئك ولا هـؤلاء . فان احتجنا الى شىء من قراءة أو كتابة أو حساب فاهون هـؤلاء

الاقباط يكفينا مؤونة ذلك . وكان يشير الى شيخ يماثله فى السن ويقول : انظروا الى هذا المعلم مرقص !

لقد رأيته يكتب لأبى ، وهو قد كتب لى حتى أخذ يضعف كما أضعف ، ولكنه علم ابنه بطرس الكتابة والحساب ليقـوم مقامه ان عجز عن العمل ، كما علمت ابنى مسعودا التجارة فى غلات الارض ليقوم مقامى حين تقعدنى السن عما أسعى فيه الان من البيع والشراء . وكان الناس ربما ذكروا له أنه مسلم غنى ، وأن من الحق عليه ان يقرىء ابنهشيئا من القرآن ويعلمه شيئا من العلم ، فان ما يقضى بالجهل على الفقراء هو الامية . فكان ذلك يضحكه ويحفظه فى وقت واحد : كان يضحك لانه رأى أباه يحفظ من القرآن ما يجزىء عنه فى صلاته ، وقـد حفظ هومن القرآن ما يجزىءعنه فى صلاته أيضا ،وعلمه ابنهفحفظه وآية ذلك أنه يصلى فيجهر بالقراءة حينا ويخافت بها حينا آخر ، لا يأخذ عليه أحد خطأ فيما يقرأ ، وان ابنه يصلى ويقرأ القرآن فى صلاته فلا يخطىء فيما يقـرأ منه . والله لم يأمر المسلمين بأن يحفظوا القرآن كله ولا بأن يقرءوه كله ، وانمـا أمرهم أن يقرأوا ما تيسر منه ، فأما حفظه كله وقراءته كله ، فيكفى أن ينهض بهما الذين تفقهوا فى الدين . وكان يغتاظ حين يرى الزراية على الامية والغض من الاميين . كان يرى فى ذلك شيئا من الاثم ، لان النبى (ص) كان أميا ، ولان العرب كانوا أميين ، لم يعابوا بذلك ولم يغض ذلك من قدرهم قليـلا ولا كثيرا . ولم يكن يغنى شيئا أن يقال للحاج عمران انهليس النبى ولا شيئا يشبه النبى من بعد . فاذا كانت أمية النبى آية له ، فأمية الحاج عمران نقص فيه ، وان العرب لم يفاخروا قط بأميتهم ، وانما جاء النبى ليخرجهم من هذه الامية . لم يكن من المفيد أن يقال شىء من ذلك للحاج عمران ، فانه لم يكن يسمع له أو يلتفت اليه ، وانما استقرت هذه الآراء فى

نفسه لا تبرحها ، وأقفل الافق بينه وبين ما وراء هذه الاراء من المعانى والحقائق ، فهو لا يتجاوزه ولا يعدوه • وكان ابنه مسعود يرى رأيه ويسير سيرته فى كل شىء : جهل بالقراءة والكتاب ، ومفاخرة بهذا الجهل ، وبراعة فى التجارة وتزيد فى هذه البراعة ، وانصراف عن الشر ما وسعه الانصراف عن الشر ، وايثار للخير والمعروف ما أطاق ايثار الخير والمعروف • ولكن الله أتاح لمسعود ما لم يتح للحاج عمران ، فوصل أسبابه بأسباب الشيخ حين ارتحل الشيخ لاداء حجته الاولى ، فكان مسعود ممن سافروا مع الشيخ وأدوا معه الفريضة وقد ألقى الله فى نفسه حب الشيخ ، فكان يلزمه أثناء السفر ويتطوع لخدمته ، يضايق بذلك خاصة الشيخ وأصفياءه • ولكن الشيخ كان يرضى ذلك منه ويشكره له ، ويسأل عنه اذا غاب ، ويستدنيه اذا حضر • فاذا عادت القافلة الى وطنها كان الحاج مسعود من خاصة الشيخ والمتازين بين ذوى مودته • ومنذ ذلك الوقت لم يفارق الحاج مسعود شيخه فى سفر ولا فى اقامة ولم يتخلف عن مجلس من مجالسه ، ولم يتعمد التخلف عن الصلاة التى كان يقيمها الشيخ ، انما كان يكره على ذلك اكراها فى بعض الاحيان ، فيؤدى الصلاة كما يستطيع وفى نفسه شىء من حزن لانه لم يؤدها مع الشيخ • وكان الله قد منحه ذاكرة قوية رائعة ، فلم يكن يسمع شيئا الا حفظه ، ولم يكن يتحدث اليه بشىء الا وعاه ، وهو من أجل ذلك قد حفظ القرآن كله لكثرة ما كان يستمع لتلاوة القرآن ، وحفظ كثيرا من الحديث لكثرة ما كان يستمع الى الشيخ وهو يروى الحديث وحفظ كل ما كان الشيخ يبتهل به الى ربه من دعاء ، بل حفظ أكثر من ذلك : حفظ أطرافا من علوم الدين ومن الفقه والتصوف والكلام خاصة ، لكثرة ما سمع الشيخ يتحدث فى هذه الالوان من العلم الى الذين كانوا يفدون عليه ويقيمون عنده من علماء القاهرة • وعرف الشيخ منه ذلك فأكبره ، وازداد عنه رضا

وبه ثقة واليه اطمئنانا ، ولكنه قال له ذات يوم : انك تحفظ ما تسمع من القرآن والحديث ، وانى أخشى عليك أن تعيد ما تحفظ فتخطىء فيه ، فالخير ألا تطمئن الى حفظك حتى تعيد ما حفظت على الذين يعون القرآن ويحسنون العلم ، ذلك أحرى أن يعصمك من خطأ قد تضطر اليه ، ولكنى لا آمن عليك عواقبه هنالك لجأ الحاج مسعود الى شيخ من حفاظ القرآن فتلا عليه كتاب الله كله مرة ومرة ، حتى استيقن انه حافظ مجود ، ثم لم يكن يسمع من الشيخ حديثا يرويه عن النبى حتى ينتظر بالشيخ ساعة يخلو فيها اليه ، فاذا أمكنته الفرصة قال للشيخ وعلى ثغره ابتسامة تشرق عن مثل اللؤلؤ ، وفى عينيه دموع تترقرق ولا تكاد تنهل : ألست قد حدثتنا بكذا وكذا عن رسول الله (ص) ؟ فاذا قال الشيخ : بلى • قال الحاج مسعود: أواثق أنت بأنى قد وعيت عنك ؟ فاذا قال الشيخ : نعم • قال الحاج مسعود : أفأستطيع ان أتحدث به الى الناس ؟ فاذا قال الشيخ : نعم • قال الحاج مسعود : ومع ذلك فلن أفعل الا مضطرا ، فما أنا بالمعلم ، وما ينبغى لى أن أكونه ، وانما أنا المتعلم والمتعلم دائما •

وكان الحاج مسعود قد ورث عن أبيه تجارة واسعة ضخمة فى غلات الارض • فلم تكن أرض الاقليم تنبت حبة الا صارت من الحقل الى الحاج مسعود ، ثم تفرقت بعد ذلك من مخازن الحاج مسعود الى من صيرها الله له رزقا من أهل المدينة أو من أهل الاقليم بل من اهل الاقاليم البعيدة •• ولم يكن أحد يمر بمخازن الحاج مسعود فى ساعة من النهار الا رأى أمامها جماعات لا تكاد تحصى من الحمر والابل ، هذه يوضع عنها ما تحمل قد أقبلت به من المتاجر والحقول ، وهذه توقر بالاحمال لتنقلها الى المتاجر والدور ولتنقلها الى السفن بوجه خاص • فقد كان للحاج مسعود ما يشبه أن يكون أسطولا نهريا •

وكانت سفنه المملوكة له والتى كان يستأجرها من غيره ما تزال مصعدة فى النيل نحو الصعيد أو هابطة فيه نحو القاهرة . وكان الحاج مسعود مصدر رزق لخلق كثير من أهل المدينة والقرى المجاورة . فما أكثر الذين كانوا يعملون عنده بأيديهم كيلا ووزنا وتعبئة وسعيا بالتجارة هنا وهناك ، وما أكثر الذين كانوا يأجرونه من حمر وابل لينقلوا عنه وينقلوا اليه . وكان الناس لا يرون قطارا من الابل يحدو به حاد أو قافلة من الحمر يسوقها سائق وهو يتغنى بهذا اللفظ القروى الظريف « يا دواب يا دواب » الا قالوا : هذه ابل الحاج مسعود أو هذه حمر الحاج مسعود .

وكان الحاج مسعود يسكن داره فى طرف من أطراف المدينة يوشك أن يكون قريةمن القرى ، بل توشك الدار نفسها ان تكون قرية صغيرة من القرى ، وكانت هذه الدار قد نمت نموا مطردا . ورثها الحاج مسعود عن أبيه الحاج عمران واسعة فسيحة الارجاء ، لا تكاد ترتفع فى السماء الا قليلا ، وورث من حولها أرضا منبسطة لا يكاد الطرف يبلغ مداها . فلما رزق ابنته الاولى فاطمة خطر له أن يبنى عن يمين داره الموروثة دارا جديدة صغيرة لهذه الصبية التى لم تتم العام الاول من حياتها وقال لامرأته وهو يضحك : ان مد الله لهذه الصبية فى العمر فستتزوج ، وما احب أن تنتقل الى زوجها فتصبح غريبة عنده وانما أحب أن ينتقل الزوج اليها وان تستقبله فى هذه الدار التى تملكها ، فلا تحس أنها تبع له أو ثقل على أسرته . ثم رزق ابنته الثانية حفيظة ، فاتخذ لها دارا الى جانب دار فاطمة وقال لامرأته مثل ذلك القول ، وقال للناس مثل ذلك القول . ثم رزق بعد ذلك خديجة ومنى ، فاتخذ لهما دارين عن شمال داره كما اتخذ لاختيهما دارين عن يمينها . ونظر ذات يوم فاذا أبنيته قد كادت تستغرق ماكان يملك من الارض فى طرف المدينة ، واذا هى توشك ان تستقل عن المدينة استقلالا ، واذا

هى بناء ضخم ينبسط أمامه فناء عريض قد قامت فيه بعض الاشجار متفرقة ، وامتد له عن يمين وشمال جناحان طويلان على شىء من ضخامة . فلما رأى هذا كله أعجبه واتخذ من حوله سورا ، واذا داره أشبه شىء بالحصن ذى الاسوار المرتفعة فى السماء ، تفتح أبوابها مع الصبح ليخرج منها الناس والابل والماشية ، ثم تغلق اذا تقدم الليل على من ءلجأ اليها وما ألجىء اليها من الناس والماشية . فلا غرابة فى أن يفكر على أبو خالد فى أن يصهر الى الحاج مسعود كما قدر الشيخ الكبير . فقد كان شرف هذا الرجل ومكانه من الشيخ وتجارته الواسعة وثروته العريضة ودوره هذه المنبثة من وراء السور كأنها الحصن وهذا الخير الكثير الذى يغدو منها مع مطلع الفجر ويروح اليها عند مغرب الشمس ، كان هذا كله مغريا لعلى بالاصهار الى الحاج مسعود ، فكيف وقد سمع على أن صغرى بناته جميلة رائعة الجمال لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها بعد ! وليس من البعيد أن يكون على قد وجد فى ضميره الخفى على شيخه بعض الموجدة حين صرف عنه مسعودا وحذره من الاصهار اليه . ولكن هذا ظن نستغفر الله منه فان بعض الظن اثم ، انما الشىء الذى لا شك فيه هو أن شيئا من فتور قد سرى فى اجتهاد على كما تسرى النار الخفية الضئيلة فى المقادير الضخمة الهائلة من الهشيم . وظن آخر نستغفر الله منه لان بعض الظن اثم ، وهو أن شيئا من الفتور الخفى جدا ، قد أخذ يسرى فى حب على لابنه خالد وفى عطفه عليه . ولو أمكن أن يحسد الآباء أبناءهم لجاز أن تكون شرارة ضئيلة جدا من الحسد قد وقعت فى قلب على حين سمع الشيخ يرغب الحاج مسعودا فى صهر خالد هذا الفتى الذى اتخذ له زوجا فأضاعت عقلها جنية البيت ، والذى لم يكد يكسب حياته الا منذ وقت قصير . والشيطان خبيث بغيض يندس الى القلوب الطاهرة والى النفوس الزكية فيلقى فيها شيئا من فساد ، الا أن يعصم الله هذه النفوس وتلك

القلوب من نزعات الشيطان . ولعله قد عصم منها نفس على الزكية وقلبه الطاهر الذى ملىء علما ودينا . ولكن الشيطان وقح لا يعرف الحياء ، ملح لا يكره ان يثقل على الناس بما يوسوس فى صدورهم من الشر الذى يغرى بالاثم ويورط فى سوء الظن ، يلتمس لذلك حيلا لا تحصى ، يوسوس بذلك مباشرة فى صدور الناس أحيانا . ويجرى به ألسنة الاعداء والحساد والجهال من الاصدقاء احيانا اخرى .وهو قد فعل ذلك مع على ، لم يجترىء أن يواجه حبه للشيخ وثقته به ، وعطفه على خالد وأمله فيه ، فدس من أصحابه من قال له مازحا بعد تلك الليلة التى عبث الشيخ فيها به : لقد قسا عليك الشيخ أمس وصرف عنك خيرا كثيرا . ومع ذلك فمن يدرى ، لعل الشيخ انما صرف عنك شرا كبيرا ، فان للاولياء أمثاله أسرارا لا يفهمها أمثالنا ، ومع ذلك فانى أرجو ألا يكون نصيب هذه الصبية ان زفت الى خالد كنصيب تلك المرأة البائسة التى لم تكد تقيم معه أعواما حتى مسها لطف الله . ولم يكد على يسمع هذا الكلام حتى ثار وفار وهم أن يبطش بصاحبه لولا بقية من حلم ، فقد استباح هذا الرجل لنفسه أن يجرؤ على الشيخ ، ومن دون الجراءة على الشيخ أهوال ، واستباح هذا الرجل لنفسه أن يعرض بخالد ولولا أن الله عز وجل قال : « ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » لما رجع هذا الرجل الى أهله موفورا . ولكن لا أقل من أن تنقطع الصلة بين على وبين هذا الرجل الذى اتخذه الشيطان مطية الى الفساد .وقد كان ذلك ، فأعرض على عن صاحبه بعد أن زجره زجرا عنيفا، وأقسم لا يكون بينه وبينه سبب منذ اليوم .

ومن المحقق أن عليا قد عنى بتجارته عناية شديدة ، عناية لم تغن عنه شيئا ، ولكن على المرء أن يسعى الى الخير جهده ، وعنى ببنيه وبناته وبنسائه وأحب داره حبا شديدا . وأى

غرابة فى ذلك ، فالمؤمن حقا مكلف ان يصل الرحم ،ويحسن القيام على أهله وداره وبنيه . والقيام على الابناء وعلى ذوى القربى وأولى الارحام واجب يعاقب المقصر فيه ويثاب الناهض به . وهو بعد هذا صدقة يضاعف الله جزاءه لمن يؤدونه على وجهه . ومن الجائز أن تكون عناية على بتجارته وقيامه على أهله وسعيه فى اصلاح أمره ، كل ذلك قد يضطره الى قليل من التقصير فى ذات الشيخ ، والى التخلف القليل عن بعض مجالسه ، ولكن الشيخ يعرف أمره كله حق المعرفة ، وهو يعذر تقصيره ويعفو عن تخلفه . ومن الجائز ان يصرفه هذا كله عن بعض الرفق بابنه خالد ، ولكن خالدا رجل قد توسط العقد الثالث من عمره ، فهو لا يحتاج الى العناية والعطف كما يحتاج اليهما هؤلاء النسوة الضعاف ، وهؤلاء الصبية الصغار **وربما كان الحق على خالد أن يعنى بأبيه واخوته أكثر مما يفعل الى الان ، ولكنه شاب ، وللشباب ضلاله المؤقت ، وخالد مغرور بمنصبه الجديد ، ولا شك فى أنه سيثوب الى نفسه ، وسيذكر ان حمل ابيه ثقيل ، وانه يستطيع ان يخفف بعض هذا الحمل . أليس يقبض أربعة جنيهات فى آخر كل شهر ! كل هذه خواطر لعل نفس على قد تحدثت بها الى على حديثا همسا لا يكاد يسمع ، ولكنها تحدثت به على كل حال ، فهى خليقة أن تلام . والنفس أمارة بالسوء الا من رحم ربى .وعلى حريص كل الحرص على ان تناله رحمة الله ، فهو يلوم نفسه لوما عنيفا ، ويجتهد فى العبادة اجتهادا شديدا ، وينفق فى غرفة أم خالد ليلة قائمة هائمة بذكر الله جاهرة بتلاوة القرآن قد طرد عنها الشيطان طردا ، ورد عنها النوم ردا ، حتى اذا صلى على الصبح وشرب القهوة نازعته نفسه الى الراحة وشىء من النوم ، فيتجهم لها ويغلظ عليها ويشتد فى تأديبها ،ويقسم لا يذوق النوم حتى يذهب الى متجره ويعود الى غدائه . فاذا صلى الظهر نام وطلب الى هناء أن توقظه ليدرك صلاة العصر**

قبل أن تفوته . فاذا صلى العصر سعى الى شيخه فشهد معه صلاة العشاءين وحضر معه حلقة الذكر .

وفى ذات يوم ذهب خالد الى متجر أبيه بعد صلاة العصر فرآه جالسا يدير ذكر الله على سبحته تلك ، فسلم الفتى ، ولكن عليا لم يرد عليه سلامه ولم يرفع اليه رأسه ، وانما ظل مطرقا يدير ذكره فى أناة ، يمد صوته بحروف المد اكثر مما تعود أن يفعل ، ويساقط حبات السبحة فى بطء متكلف ، حتى اذا أدار ذكر الله على سبحته من طرف الى طرف استغفر الله فأطال استغفاره ، وصلى على النبى فأكثر الصلاة عليه ، ووهب ثواب هذا كله للشيخ رحمه الله ، ثم أدخل سبحته فى جيبه مستأنيا ، ثم مسح وجهه بيديه متشهدا ، ثم التفت الى خالد وهو يقول : ألست بخير يا بنى ؟ انى لم أرك منذ أمس

قال الفتى : لقد أمضيت صدر الليل عند الشيخ ، وغدوت الى عملى وجه النهار ، وجئت ... فقاطعه على رفيقا به وهو يقول: جئت لترانى ، ولتقص على ما كان بينك وبين الشيخ والحاج مسعود فى خلوتكم أمس ، فقد أنبئت بهذه الخلوة . قال خالد: نعم . قال على : عفا الله عن الشيخ ! فلو كان أبوه حيا لكنت رابع ثلاثتكم أمس . وعفا الله عنك يا بنى ! فلولا أنك حديث السن لما قرأت فاتحة الخطبة وأبوك غائب . ولكنـــك رأيت الشيخ يدعوك فلم تستطع له خلافا ، ولم تفكر الا فى ان تجيب الى ما دعيت اليه . ولو كنت مكانك لانصرفت من عند الشيخ الى ابى لأبشره بهذه الخطبة ، ولـــكنك انصرفت بالبشرى الى سليم ، فقد علمت أنك طرقت بابه عليه حين تقدم الليل .

قال الفتى مضطربا متلعثما : فانى لم أجرؤ على ازعاجك وقد كاد الليل ينتصف ، ولم أجرؤ على أن أباكرك بهذا النبأ قبل أن أغدو على عملى . فأما سليم ..

قال على مقاطعا : فليس بينك وبينه من الكلفة مثل ما بينك وبين أبيك ! ثم تشهد على واستغفر الله ونهض الى ابنه فضمه

اليه وقبل بين عينيه ، وقال : قد سامحتك فليسامحك الله . ومتى استطاع الآباء أن يطيلوا الموجدة على أبنائهم ، أما الابناء فما أقدرهم على أن يمضوا فى القسوة على آبائهم ! اذهب يابنى فقد عفوت عنك . ثم بسط يده فتناولها خالد وقبلها صامتا ، وظل فى مكانه قائما واجما لا يقول شيئا ولا يأتى حركة . فنظر اليه أبوه ثم اندفع فى الضحك وهو يقول : ما قيـــامك أمامى كالصنم لا تقول شيئا ولا تأتى حراكا ؟ أمغتبط أنت بهذه الخطبة ؟ أضربت مع الحاج مسعود موعدا للزواج ؟ قـال خالد : أما أنى مغتبط بهذه الخطبة فما أدرى ماذا أقول لك ، وانما موقفى منها كموقفى من تلك الخطبة الاولى : أمر الشيخ الكبير فأطعت ، ودعا الشيخ الصغير فأجبت . والله يختار لنا ويلهمنا التوفيق فيما نأتى وما ندع . وأما موعد الزواج فما ينبغى أن نحدده ولم يحل الحول على موت عبد الرحمن ، وما كان ينبغى أن نتحدث فيه وأنت غائب . وبعد فانا لم نحدث أمس أمرا جديدا ، ولم نزد على أن ننفذ وصية من الشـــيخ الكبير كنت بها عالما . قال على وقد أحس فى نفسه شيئا من الندم لغلظته على ابنه ، وكثير من الرضا عن طـــاعة ابنه له ووفائه لحميه القديم ــ قال على : بارك الله عليك يا بنى وألهمك التوفيق ، وكتب لك الخير فى كل خطوة تخطوها أو عمل تقدم عليه ، أقم معى حتى اذا دنا الغروب سعينا الى الشيخ فشهدنا معه الصلاة ..

- ١٦ -

قالت زبيدة لزوجها سليم : لقد سمعتك تتحدث الى خالد أمس بأن أكثر أهل النار من النساء . قال سليم وهو يتكلف الغضب : فقد كنت تتسمعين علينا اذا ؟ قالت زبيدة : لا والله ما تسمعت عليكما ، ولا احتجت الى أن أتسمع اليكما ، فقد كان حديثكما عاليا مرتفعا ، يسمعه من فى الدار ، ويسمعه من يمر بها فى الطريق . كان خالد فخورا مغتبطا لانه سمع هذا الحديث من شيخه فأقبل فرحا به يعيده عليك ، وقبلته أنت راضيا مسرورا كأن لك عند النساء ثأرا ، ثم مضيت تفسره وتعلله وتزيد فيه .

قال سليم وهو مغرق فى الضحك : وماذا فهمت من هـذا كله ؟

قالت زبيدة : فهمت أن النساء كافرات للنعمة ، جاحدات للجميل ، مضيعات للمعروف ، تحسنون اليهن فيفرحن ثـم

يسرع اليهن النسيان ، فهن لا يذكرن لكم خيرا ولا يعرفن لكم جميلا ، وهن مع ذلك ذاكرات للشر حافظات للسيئة ، لا يكاد زوج المرأة منهن يؤذيها بالهين او العظيم من الامر حتى تنسى حبه لها وبره بها وما قدم اليها من معروف ، وتأخذه بسيئات لا تحصى . فاثمهن الاعظم وجريمتهن الكبرى هى هذا العقوق وأى أثم أعظم من العقوق وكفران النعمة ؟ وهن من أجل ذلك يصرن الى النار فيؤلفن من أهلها الكثرة الساحقة .

قال سليم وهو لا يكاد يفيق من ضحكه : وهل تنكـرين ذلك أو ترتابين فيه ؟ قالت زبيدة : لا أنكر شيئا ولا أرتاب فى شىء ، وانى لتائبة الى الله من كل ذنب ، طالبة عفوه عن كل خطيئة ، باذلة ما أملك من الجهد لابلغ رضاه ورضاك أنت ، فان رضا الزوج من رضا الله ، وأنا مع ذلك مشفقة ألا أنجو من النار . قال سليم : اجتهدى ، فعسى ان يعصمك الله منها ، وأن يجعلك من أهل الجنة . قالت زبيدة وقد أخذت تضحك : فأما أنتم معشر الرجال فأقلكم في النار وأكثركم فى الجنة ، لان الطاعة فيكم فاشية ، والمعصية فيكم نادرة ، ولانكم لاتؤذون أحدا ولا تتقدمون الى أحد بما يكره ، وانما أنتم خير خالص لا يمازجه الشر ، وعسل خالص لا يشوبه العلقم . فأما ان تسوموا نساءكم سوء العذاب وان ترهقوهن من امرهن عسرا ، فانما ذلك تأديب لهن . تستوفون ما لكم عليهن من حق الطـاعة ، وتتقربون بتأديبهن الى الله . وأما أن تمسكوا نساءكم على ما يكرهن من الالم والبؤس ، وأن تعلقوا على رءوسهن هـذا السيف القاطع سيف الطلاق ، وأن تصوبوا الى صدورهن هذا السنان الذى ينفذ الى أعماق القلوب ، سنان التزوج بضرة تدخلونها على الزوج فى دارها وتنغصون بها حياتها ، وتذيقونها ألم الغيرة وشقاء الحسد ، وتورطونها فى الغدر والكيد والنفاق فلبس عليكم من هذا كله بأس ، انما تستمتعون بما أتاح الله

لكم من رخصة وبما أباح لكم من حق . فان ضاقت المرأة بشيء من ذلك أو أنكرته أو ثارت له ، فهي كافرة للنعمة ، جاحدة للجميل ، عاصية لله ، وهي من أجل ذلك صائرة الى النار مع أمثالها اللاتى يؤلفن الكثرة الساحقة من أهلها .

قال سليم وقد أخذ يثوب الى شيء من الجد والهدوء : ما رأيت كاليوم جدلا ولا شغبا . من أين لك هذا العلم كله ؟ ومن أين لك هذه الفصاحة كلها ؟! وما هذا الشيطان الذى استقر فى قلبك وأجرى لسانك بهذا المنكر من القول ؟!

قالت زبيدة وكأنها لم تسمع لزوجها : وأما أن يخون الرجل منكم زوجه أو أزواجه ، فيعدو على غير حقه ، ويأثم فى غير حاجة الى الاثم ، فخطيئة عسى الله أن يغفرها لكم ما دمتم تصلون وتصومون وتستغفرون ، والاستغفار يمحو الذنوب ، ويعصم أصحابه من النار . ألا ترون أنكم تسرفون على أنفسكم وعلى الناس حين لا تكتفون بتدبير أمور دنياكم على ما تحبون ،واذا أنتم تدبرون أمور الاخرة على ما تشتهون أيضا ؟ ! وهم سليم أن يتكلم وقد أخذه شيء من العنف ، ولكن زبيدة مضت فى حديثها وقالت فى ابتسامة ساخرة مغرية معا : حدثنى عن نفيسة ، أمن أهل الجنة هى أم من أهل النار ؟ ولم يكد سليم يسمع هذا السؤال حتى سكت غضبه وانكسرت حدته وظل واجما لا يكاد يجيب ، فلم يكن يقدر ان هذا الحوار الذى استأنفته امرأته يريد ان ينتهى الى نفيسة . وما شأن نفيسة وهذا الحديث الذى كان يفاوض فيه أخاه وصديقه أمس ؟ قالت زبيدة : ان نفيسة لم تختر لنفسها صورتها البشعة ومنظرها القبيح ، ولم تدع خالدا ليكون لها زوجا ، بل لم تعرفه الا حين أدخل عليها أو أدخلت عليه . ثم هى لم تمنح احدى ابنتيها جمالا رائعا ، ولم تمنح الاخرى قبحا مخيفا . ثم هى تؤذ زوجها فى نفسه ولا فى بيته ،ولم تخالف عن أمره ، ولم تسمعه ما يكره من القول ، ولم تكلفه ما لا يطيق من

الامر . ثم هى لم تدع المرض الى نفسها ، كما أنها لم تدع القبح الى وجهها . فهل تستطيع أن تنبئنى فيم كان اقبال خالد عليها ، وفيم كان اعراضه عنها ، وفيم كان تعذيبه لها ، ثم فيم كان هذا الطلاق ، وفيم كانت هذه الخطبة؟ هنالك دهش سليم لعلم زبيدة بأمر الطلاق وبأمر الخطبة ، فقال لامرأته مترفقا :

– ومن أنبأك بأن خالدا طلق امرأته ، أو من انباك بأنه هم ان يتزوج امرأة اخرى ؟ قالت زبيدة : أنبأنى بذلك من انبأنى ولكنه حق لاشك فيه . وان خالدا لأعقل وارفق بنفيسة من أن يهجرها هجرا غير جميل كما يفعل الان ، فيقرها فى طرف من أطراف الدار ويقيم على خدمتها وخدمة ابنتيها وامها مولاته نسيم ، ثم لا يزور هؤلاء النسوة الا زيارات متقطعة . هو اعقل وارفق بنفيسة من ان يأتى هذا كله من الامر دون أن ينبئها بأن الصلة بينها وبينه مقطوعة ، وبأن الحبل بينها وبينه مبتوت . قال سليم : فانك تعلمين ان نفيسة لا تصلح له زوجا ، ولا تقدر على عشرة الرجال . فما ذنب خالد ان اعترف بالحق الواقع ! وهل ترين له ان يعيش مع مجنونة او أن يفرض على نفسه حياة الرهبان ؟ قالت : لا ادرى !ولكن جنون نفيسة لم يأتها من قبل نفسها ، وانما جاءها من هذا الزواج الذى لم ترده ، ومن هذه الظروف التى لم تخلقها . ورحم الله أم خالد اذ قالت لزوجها : انه ان اتم هذا الزواج فلن يزيد على أن يغرس فى داره شجرة البؤس . لقد غرست شجرة البؤس فنمت وآتت ثمرها بشعا خبيثا . امرأة ترزأ فى زوجها وابنتها معا ، ثم ترى ابنتها وقد اصطلح عليها المرض وهجر الزوج والحرمان . فأنت تعلم ان نفيسة ليست ميسرا عليها فى الرزق . ولست ألوم احدا ، ولكنها فقدت ثروة ابيها ، وتفرقت ثروة على فى اسرته الضخمة ، وخالد لا يرزقها الا كما يستطيع . ثم لم يكفها هذا كله . فقد رزقها هذا الزواج السعيد صبيتين كان من حقهما ان تنشآ

فى النعمة ، فهما تنشآن فى البؤس بين ام مريضة وجدة محزونة ومولاة سوداء تقوم من امرهما بما تستطيع القيام به، وأب ينفق الايام ، وقد ينفق الاسبوع ، دون ان يراهما . كل هذا لا يكفى ، فلا بد من ان يتزوج خالد ، ومن ان يتخذ لامهما ضرة ، ومن ان يكون له من هذه الضرة بنون وبنات يشاركونهما فى حب ابيهما وبره . ومن يدرى ، لعلهم يصرفون أباهما عنهما كل الصرف . حدثنى عن نفيسة امن اهل الجنة هى ام من اهل النار ؟ وحدثنى عن امها امن اهل الجنة هى ام من اهل النار ؟ ولا تنس ان نفيسة لا تحسن الصلاة فهى لا تؤدى الصلوات الخمس كما يؤديها خالد ، بل هى لم تعد تحسن شيئا ، فقد ثاب اليها حظ من رشد ولكنه ضئيل جدا لا يكاد يكفى الا لتفهم عمن يحدثها وتفهم من تتحدث اليه فى أيسر الامور .

أنك لم ترها منذ عادت الينا . وفيم تراها وقد طلقها خالد فلم يبق بينك وبينها سبب ؟ أما قبل ان يطلقها وقبل ان يلم بها هذا المرض فقد كنت تحب حديثها وتأنس الى لقائها وترغب فى زيارتها . كانت زوج اخيك ، اما الان فليست منك فى شىء . ولو قد رأيتها لرأيت شرا عظيما . اتذكر كيف كانت تتحدث فتحسن الحديث فى لغتها تلك القاهرية ، وكيف كانت تداعب فتحسن المداعبة فى ظرفها ذاك الذى لا نحسنه نحن فى الاقاليم ! . لقد ذهب هذا كله ، واصبحت حياة نفيسة وجدا كلها ، واصبح صمتها متصلا مخيفا ، واصبح صوتها خافتا لا يكاد يسمع ، واصبح حديثها غامضا متقطعا لا يكاد يستوى ولا يبين . لقد اصبحت عاجزة حتى عن أيسر الاشياء . انها لا تكاد تعرف من العدد الا العشرة : فهى لا تحسن ان تقول العشرين والثلاثين والاربعين ، وانما تقول عشرتين وثلاث عشرات واربع عشرات . ولست ادرى كيف تقول اذا جاوزت المائة ! لقد انتهى بها البؤس الى هذا كله .

وتصور بؤس امها حين تراها على هذا النحو وحين تضطرب بين فقد زوجها ومرض ابنتها . فأما الصبيتان فلا تدركان من هذا شيئا ، ولكن لهما حظا من قسوة الطفولة ، فهما تعبثان بأمهما وتضحكان من ذهولها وما اضطرت اليه من البله ، ولا تحفلان بجدتهما ، ولا تكادان تحفلان بنسيم ، لانهما لاتفهمان عنها اكثر ما تقول . حدثنى عن هؤلاء النسوة امن أهل الجنة هن ام من اهل النار ؟ ثم حدثنى عن خالد وابيه وعن نفسك . انكم تصلون وتصومون وتسعون الى الشيخ وتشهدون حلقة الذكر وتقرءون القرآن وتظنون ، وارجو ، أن تكونوا من اهل الجنة ، ولكنكم ترون هذا البؤس المؤلم وهذا الشقاء المهلك ، فلا تمدون الى البائسين يدا ، ولا تنالونهم بمعروف ، ولا تكرهون ان تضيفوا اليه بؤسا جديدا وشقاء طريفا . قالت ذلك ثم لم تستطع ان تمضى فى الحديث ، لان صوتها انحطم فى حلقها ، ولان دموعها انهلت على وجهها غزارا . وكان زوجها يسمع لها فى صمت متصل يقطعه بين حين وحين بهذه الكلمات: لا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله . فلما رأى زوجه تمضى فى البكاء ولم يستطع أن يثبت لهذا الحزن ، ترك امرأته وخرج من الدار ، لا يريد وجها بعينه ، وانما يفر من منظر لايستطيع له ثباتا . ثم عاد الى اهله بعد ساعة . فرأى امرأته قد أصلحت من شأنها وانصرفت الى امر بيتها تدبره وتقوم عليه . وهم سليم ان يتحدث الى امرأته حديثا غير الذى كانا فيه ، ولكنها لم تستجب له ، وانما استأنفت حديثها من حيث قطعته أو من حيث قطعه عليها البكاء . قالت : اما أنا فلا احسن صلاة ولا صوما ولا عبادة ، ولكن الله يرى ما آتى من الامر سرا أو علانية . وهو يرانى عند نفيسة فى كل يوم مصبحة حينا وممسية حينا اخر ، أواسيها بالقول دائما ، وأواسيها بالدموع احيانا . وماذا املك غير القول والبكاء ! ثم ابتسمت لزوجها ابتسامة حزينة وقالت له : ان لى اليك حاجتين تستطيع

أن تجيبنى اليهما ، وما اشك انك ستظفر على ذلك بثواب الله . قال سليم : وما ذاك ؟ . قالت زبيدة : فأما أولاهما فأن تؤخر زواج خالد الى ابعد امد ممكن ، فلعل الله أن يرد الى نفيسة صحتها فتحتمل هذه المصيبة خيرا مما تحتملها الان . قال سليم : فان خالدا لن يتزوج قبل ان يحول الحول على موت حميه ، وما زال بيننا وبين ذلك شهور . قالت زبيدة :شهور ، أخشى ان تكون محنة نفيسة فى صحتها اطول من ذلك . قال سليم : وما حاجتك الثانية ؟ قالت زبيدة ان تبر بنفيسة وتشعرها دائما بأننا لم نكن عابثين حين خطبنا ابنتها جلنار لابننا سالم . قال سليم : وهى تشك فى ذلك ؟ قالت :لاأدرى! ولكن هذا الحديث يرضيها فيما اعتقد ، ولعله ان يفتح لقلبها اليائس فرجة من امل قال سليم : فسنزورها معا اذا كان الغد. قالت زبيدة : وحاجة ثالثة ليس بينها وبين نفيسة صلة .. قال سليم : وما ذاك أيضا ؟ وهمت زبيدة ان تجيب ، ولكن العبرة حبست صوتها فانصرفت من الحجرة مسرعة ،وتبعها زوجها مسرعا حتى ادركها فضمها اليه وجعل يقبل رأسها وسألها : ما حاجتك ؟ وماذا تريدين ؟ افصحى ولك عهد الله أن أجيبك الى ما تبتغينه ان كان ذلك فى طاقتى . قالت : لا تدخل على ضرة ، فان هممت بذلك فطلقنى وارددنى الى اهلى الفقراء ، ولا تمسكنى على كره منى ، وان مرضت عندك فلا تهجرنى مهما يطل مرضى ، وما أظنه يطول . هنالك اغرق سليم فى الضحك ، وضم امرأته اليه مخلصا لها عطوفا عليها ،وهو يقول : انكن لناقصات عقل ودين .

لم تجر الامور بين خالد وأبيه على ما كانا يحبان ، فحياة الناس ليست طوع ايديهم يصرفونها على ما يهوون ، وانما تعرض لها العلل والآفات ، وتتحكم فيها الحوادث والخطوب التى لا يملك الناس من امرها شيئا ، أو لا يملكون من امرها الا قليلا ، وهى من اجل ذلك تدفعهم الى مسالك لو خيروا لما اندفعوا اليها ، وتضطرهم الى امور لو استطاعوا لاجتنبوها . فلم يكن فى يد على ان تصلح تجارته وتنمو وتغل عليه ما ينهض بحاجة اسرته الكبيرة . ولم يكن فى يد خالد ان يجد من راتبه – الذى كان يرى فى ذلك الوقت ضخما على ضآلته – مايمكنه من أن يحمل عن ابيه بعض اثقاله . ثم لم يكن فى يد احد من الرجلين ان يمنع هذه الاسرة الضخمة من الحاجة الى ما يقيم أودها من طعام ، ومن الحاجة الى ما يستر اجسامها من لباس،

ومن الحاجة أن تحتفظ ولو بشيء ضئيل من مكانها الاجتماعي في المدينة . فلم يكن بد اذا من ان ينهض على بهذه الحقوق كلها وقد حاول الرجل فلم يستطع وجد في اصلاح أمره فلم يجد الى اصلاحه سبيلا . فلجأ الى الاستدانة مقتصدا فيها ما وسعه الاقتصاد سبيلا . فلجأ الى الاستدانة ، مقتصدا فيها ما وسعه الاقتصاد مؤملا ان يجعل الله له فرجا من حرج ومخرجا من ضيق ، مجتهدا في تجارته ، ولكن تجارته كانت مجتهدة هي ايضا في ان تسلك طريقا معاكسا لطريق صاحبها ، مجتهدا فوق كل شيء في صلاته وعبادته وتوسله الى الله ان يضع عنه هذا الاصر الذي يثقله ، وان يرد الى خير ما كان فيه من ايام السعة والرخاء . ولكن أبواب السماء كانت كأنما أغلقت من دونه ، أو كأن الله يسمع دعاءه ويجيبه الى خير مما كان يطلب . فقد كان يطلب دراهم ودنانير ، يؤدي بها بعض دينه ، ويشتري بها لبنيه وبناته وأزواجه الغذاء والكساء والحذاء . ولكن الله كان يقبل صلواته ويسمع دعواته ، ويدخر له بهن قصورا في الجنة على هذه الانهار التي يجرى فيها ماء لذة للشاربين ، ويجرى فيها اللبن والعسل والخمر ، ويقام عليها من القصور ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد انتهى الامر بعلي الى أن أصبح شديد الامل في رضوان الله حين يبلغ الدار الاخرة ، شديد اليأس من روح الله في هذه الدار الاولى ، فلم يزده ذلك الا اجتهادا في العبادة والطاعة ، ليستكثر من رضا الله عنه ، ومما كان يرجو أن يدخر له في الجنة من نعيم . ولكنه قصر في التجارة وأهمل أمرها ، وأخذ ينظر الى أمور الدنيا في شيء من الازدراء والاستخفاف دون أن ينسى نصيبه من متاعها ولذاتها . وقد اجتهد في أن يحمل نفسه على الرضا بما قسم له ، لولا أن بطون بنيه وبناته لم تكن تطمئن الى الجوع ولا تقنع بالقليل من الطعام ، ولولا أن أزواجه وبنيه لم

يكونوا يقدرون أزمته في تجارته ولا يعرفون من ضيق ذات يده شيئا ، فكانوا يطلبون ويلحون في الطلب ، فاذا قصر الرجل في تحقيق آمالهم استحال بيته الى جحيم لا يطاق ولا يمكن الصبر عليه . وكثيرا ما كان الرجل يفزع الى المساجد ومجالس الشيوخ ، يرى الناس أنه يبتغي بذلك العبادة والطاعة ، ويرى هو أنه يفر من أزواجه وبنيه والحاحهم عليه فيما يريدون وما لا يطيق من الامر . وقد انتهى ذلك بعلي الى شيء من سوء الخلق لوحظ عليه في أحاديثه وسيرته مع الناس ولكن الناس كانوا يلتمسون له المعاذير لما يرون من ادبار الامر عنه والحاح الكساد عليه .

ولم تبخل الظروف عليه بصديق السوء الذي يحرضه على ابنه خالد ويغريه به ويسأله : كيف تشكو الضيق وتتعرض للحرج وخالد موظف يتقاضى أربعة جنيهات في كل شهر غير ما يمكن أن يصل الى يده من ذوي الحاجات ؟! فلا تصدق أن موظفا يكتفي براتبه الذي يقبضه في كل شهر ، ويقضي للناس حاجاتهم دون أن يأخذ على ذلك أجرا . ان خالدا لقادر ان شاء على أن يتحمل عنك بعض أعبائك، ويسد بعض خلتك ، وينهض على أقل تقدير بحاجات امرأته وابنتيه .

والواقع ان خالدا كان يبذل أكثر ما يستطيع ان يبذله ، فقد كان يؤدي الى ابيه آخر الشهر أكثر راتبه لا يستبقي لنفسه الا ربعه ، وكان يرى ان في ذلك أداء لحق أبيه عليه ونهوضا بحاجة أهله الادنين . ولكن أباه قال له ذات يوم : أنفق على أهلك يا بني فاني لا أجد ما أنفق على أهلي . وحسبك أنكم تقيمون في داري لا تؤدون على ذلك أجرا .

وقد صعق خالد لهذا القول الذي لم يكن ينتظر أن يسمعه من أبيه لما كان يعرف من حبه له وبره به ، ولم يكن ينتظر ان يسمعه لما كان يعلم من أدائه للحق ونهوضه بالواجب

فلما سمع مقالة أبيه لم يحر جوابا · فأعاد عليه أبوه مقالته مرة ومرة ·

قال الفتى : ومن أين أنفق على أهلى وأنا أؤدى اليك أكثر راتبى ؟ قال الشيخ : لا أدرى ! ولكن أنفق على أهلك فانى لا أجد ما أنفق على أهلى · قال الفتى : سأؤدى اليك راتبى كاملا اذا كان آخر الشهر · قال الشيخ : وأين يقع هذا الجنيه الذى تحتجزه لنفسك مما أريد ؟ قال الفتى : فان الله لا يكلف نفسا الا وسعها · قال الشيخ : صدق الله العظيم ، فان الله لا يكلفنى الا ما أطيق ، ولست أطيق أن أنفق على أهلك · قال الفتى : فانك لا تنفق على أهلى ،وانما أنفق عليهم بما أؤدى اليك من راتبى · فقهقه الشيخ قهقهة كلها غضب وقال : فانك تمن على بما تؤدى الى من هذا المال القليل كأنى لم ألدك، ولم أربك ولم أزوجك ، ولم أنفق عليك وعلى أهلك الى أمس القريب ، انى لا أريد منك مالا ولا معونة ، ولكن تحول عنى وحول أهلك الى دار أخرى ، وأنفق على نفسك وعليهم براتبك ان استطعت الى هذا سبيلا ·

قال الفتى محزونا : فانى لا أمن عليك شيئا ، ولا أجحد من نعمتك قليلا ولا كثيرا ، ولكنى لا أستطيع الا ما عرضته عليك فسأؤدى اليك راتبى كاملا · قال الشيخ وقد ملكه غضب مجنون : لا أريد منك مالا ، وانما أريد أن تتحول بأهلك عنى، فحسبى من عندى من العيال وانصرف عنى الان ، فانى أخشى أن ينطق لسانى بما أكره ·

وخرج الفتى محزونا كئيبا لا يدرى ماذا يصنع ، ولكنه نظر فاذا هو يطرق باب صديقه وأخيه سليم · ولم يكد يلقى صديقه حتى قال له هذا فى لهجة قد امتزج فيها الغضب والحنان : ما رأيت كاليوم رجلا يدخل على الناس بما يكرهون ! ألقيت

بهذا الوجه أحدا فى طريقك الى هذه الدار ؟ قال خالد : وما ذاك ؟ قال سليم : وجه مظلم ، وجبهة مقطبة ، وشفتان تمتدان شبرين الى أمام · أى كارثة ألمت بـــك؟ أتراك قد أوسقت سفينتك بنا فغرقت فى طريقها الى المدينة ؟! وكاد خـــالد يضحك لهذا العنف الرحيم ، ولكن سليما مضى فى تأنيبه وقد أخذ صوته يزداد قسوة ، وأخذت لهجته تزداد حدة ، فقال : أمسك عليك سرك أيها الرجل ، واحفظ على نفسك غيبها ، ولا تجعل وجهك للناس كتابا مفتوحا يقرءون فيه من أمرك ما يشاءون · ليكتئب قلبك ما أرادت الاحوال ان يكتئب ، وليبتئس ضميرك ما شاءت الحوادث أن يبتئس ، ولكن ليكن وجهك مستوى المنظر فى أوقات الشدة والرخاء ، فليس يعنى الناس ما يصيبك من خير وشر ، وانماأنت تثقل عليهم حين تلقاهم بوجه عابس ان تنكرت لك الدنيا ، وحـــين تلقاهم بوجه باسم ان ابتسمت لك الايام · تثقل عليهم وتغـــرى شرارهم بالشماتة بك ان اصابك الضر ، وبالوجد عليك والحسد لك ان أصابك ما تحب ·

قال خالد وقد أخذ وجهه المنقبض ينبسط،وأخذت شفتاه الممدودتان تعودان الى مكانهما سواء ، بل أخذت تفرق بينهما ابتسامة يسيرة فيها شىء من رضا وكثير من حزن ـ قال خالد : ما أدرى لم لا تصطنع مهنة الخطباء والوعاظ ! فانك لتحسن القول ، وتحسن النفوذ الى دخائل النفوس · قال سليم وهو يضحك : بل أحسن الانباء بالغيب أيضا ، فقد كان بينك وبين أبيك شر منذ اليوم ، أليس كذلك ؟ قال خالد : بلى · قال سليم : وقد قمت منه مقام الصبى الذى لا يعرف كيف يجيب، ثم انصرفت عنه مبتئسا مكتئبـــا ، فأسرعت الى لتشركنى فى ابتئاسك واكتئابك ، وتجد عندى تسلية وعزاء · قال خالد:

لله أنت ! لقد كفيتنى مؤونة الحديث . قال سليم : اجلس يا بنى ورفه عن نفسك ، فالامرأيسر مما تظن ، ثم ضرب احدى يديه بالاخرى وهو يصيح : أرسلى الينا قهوة يا أم سالم ، وأقبلى ان شئت ، فابسمى لصهرك ، فقد عبست له الحياة . وأقبلت زبيدة ساخطة متضاحكة معا ، تقول لزوجها : أما تنفك ترتع صوتك بكل شىء ، وتشرك الناس معك فى كل شىء! لقد كنت تلوم خالدا لانه يجعل وجهه كتابا مفتوحا يقرأ فيه الناس من أمره ما يشاءون ، فهلا خافت بصـــوتك وقصرت نجواك على نجيك ! فليس كل الناس يحسن قراءة الوجـوه ، ولكن أكثر الناس يحسنون الاستماع لك والفهم عنك اذا رفعت صوتك بكل شىء .

قال سليم وهو يضحك لامرأته : ما رأيت أطول ولا أحد من هذا اللسان ! قالت زبيدة : انه لسان امرأة من أهل النار . وأعاد الزوجان على خالد حوارهما الذى قصصـــناه آنفا ، فضحك له ثلاثتهم وهم يشربون القهوة .

فلما انصرفت زبيدة لبعض شأنها قال سليم لاخيه : اعذر أباك ، فان عبئه ثقيل ، وموارده أضيق من أن تعيـــنه عـلى النهوض به ، وأعنه ان استطعت الى معونته سبيلا . قال خالد: أما أن عبئه ثقيل فهذا حق ، ولكنه هو الذى خلق لنفسه هذا العبء الثقيل . ما حاجته الى هؤلاء الضرائر اللاتى يكلفنه من النفقة ما لا يطيق ويجعلن داره جحيما ! وما حاجته الى هؤلاء الصبية الذين ينبتون فى الدار كما ينبت العشب على شاطىء القناة ! قال سليم : له فيما بينك وبين نفسك ولكن أعنه . فالامر الواقع هو ان لديه ثلاث زوجات كلهن ولود . قـــال خالد : وكيف أعينه بأكثر مما أفعل وأنا أؤدى اليه معظم ما أقبض آخر الشهر ؟! . وقد عرضت عليه أن أؤدى اليه راتبى كاملا فلم يقبل منى ، وطلب أن أتحول عنه بأهلى ، فحسبه من

عنده من العيال . قال سليم : وقد انتهى بكما الامر الى هذا الحد ؟ . قال خالد: ولولا أنه صرفنى فانصرفت لتجاوز الامر هذا الحد .

فأطرق سليم ساعة ثم رفع رأسه وقال فى صوت هادىء : فانى سأقرضك دنانير تدفعها اليه من يومك ، وتؤديها الى متى استطعت . قال خالد : ما جئت لهذا . قال سليم :فقد أخطأت وكان يجب أن تجىء لهذا ، فان أباك يعانى ضيقا يجب أن نجد له منه مخرجا ، فادفع اليه هذه الدنانير من يومك ، فاذا كان الغد فسأدفع اليه مثلها ، فان له على مثل ما له عليك من الحق . ثم نهض الى صندوق ففتحه ، والى درج صغير فى الصندوق فاستخرج منه ذهبا وضعه فى يد خالد ، وخالد صامت لا يقول شيئا ، لانه لا يجد ما يقول . ثم استأنف سليم حديثه فقال: ولست أدرى كيف تدبر أمرك ، ولاكيف تعيش بهذا الراتب الذى تقبضه آخر الشهر والذى يستكثره الناس وأراه ضئيلا لا يقوم بمثل نفقتك . قال خالد :وماذا تريد أن أصنع ؟ قال سليم : تصنع كما أصنع أنا وكما يصنع غيرى من الموظفين . قال خالد : وماذا تصنعون ؟ قال سليم : نأخذ من الناس أجر ما نؤدى اليهم من خدمة . قال خالد : فانها الرشوة اذا . قال سليم : سمها أنت الرشوة ، فأما أنا فأسمى بعضها أجرا مستحقا وأسمى بعضها الاخر هدية مبذولة . قال خالد : فان الاسماء لا تغنى عن الحق شيئا ، فانكم تتقاضون أجركم على ما تعملون آخر الشهر ، فما تأخذونه من الناس لا يحل لكم ، لانه الرشوة لا أكثر ولا أقل . قال سليم : يحل لنا أو لا يحل هذا آخر شىء نفكـــر فيه . يجب أن نعيش قبـــل كـــل شء ، والراتب الذى نقبضه لايمكننا من أن نعيش . ونحن لا نستكره الناس على ما يضعون فى أيدينا من نقد وما يحملون الى دورنا من عروض . وانما هم يفعلون ذلك طائعين . ويسوءهم

أن نرده عليك . وهبك قترت على نسيم مولاتك فى الرزق ومنحتها من الطعام أقل مما يقيم أودها أفتلومها ان سرقت لتشبع من جوع ؟ .

قال خالد : فعلى ألا أضطرها الى السرقة . قال سليم : فعلى الحكومة اذا ألا تضطرنا الى قبول الرشوة . والى أن تأجرنا الحكومة أجرا حسنا ، لا أرى علينا بأسا من أن نستعين على الحياة بما يدس الينا أصحاب المصالح من المال . قال خالد : فان هؤلاء الناس يدفعون أجور مصالحهم مرتين : يدفعونها حين يؤدون الضرائب ، ويدفعونها حين يؤدون اليكم ما يؤدون من المال ، وهذا هو الظلم الذى ليس بعده ظلم . قال سليم : يدفعونها مرتين أو مرات ، هذا شيء لا يعنينى ، وانما الذى يعنينى هو أن أعيش أولا ، فأما هذا الظلم الذى تذكره فلست أنا الذى يقترفه ، وانما يقترفه الذين يأخذون الضرائب ثم لا يأجرون الموظفين أجرا ييسر لهم الحياة ، وهنا أطرق الرجلان اطراقتين مختلفتين . فأما خالد فقد أطرق اطراقة الذاهل الذى ذلك أن يرد عليه . وأما سليم فقد أطرق اطراقة الرجل الذى يعرف أنه يأتى اثما من الامر ، ويقول منكرا من القول ، ولكنه مع ذلك يلتمس لنفسه العذر مما يأتى ومما يقول ، وهو يعيد على نفسه ذلك المثل الذى ضربه للموظفين الذين يضيق عليهم فى الاجر فيرتشون ، مثل الخادم الذى يقتر عليها فى الرزق فتسرق لتتقى الجوع . ثم رفع سليم رأسه وقطع هذا الصمت الذى كاد يطول ، فقال فى صوت خافت : أيهما شر : رجل يرتشى ليعيش ، أم رجل يرتشى ليستكثر من المال؟ قال خالد : كلاهما آثم ، ولكن الذى يرتشى ليستكثر من المال أشد اغراقا فى الاثم وتورطا فى المعصية . قال سليم : فالحمد لله

الذى لا يحمد على مكروه سواه . أما أنا وأمثالى فنرتشى لنعيش وهذه رشوتى قد أتاحت لى أن أقرضك ما تعين به أباك ، وأن أعينه من غد . فأما غيرنا . . ثم سكت قليلا ، ثم قال : فأما رؤساؤنا وسادتنا فان الحكومة تبسط لهم فى الاجر وتوسع عليهم فى الرزق ، وتقوم لهم بأكثر مما يحتاجون اليه ، وهم مع ذلك يرتشون لا كما نرتشى ، ويأخذون لا كما نأخذ . انا نأخذ الدرهم والدراهم ، ونأخذ الدينار والدنانير ، ونأخذ السفط من البن أو الجماعة من رءوس السكر ، أو الحقيبة من الارز ، فأما هم فيأخذون أضعاف ذلك وأضعافه . ونحن نأخذ ما نأخذ لننفق على أنفسنا وعيالنا . وهم يأخذون ما يأخذون **ليشتروا الضياع يضيفونها الى الضياع . صدقنى ! انك لا** تملك كما أنى لا أملك اصلاح ما فسد من الامر ، والله وحده القادر على أن يرد الناس أخيارا أبرارا . هنالك نهض خالد وهو يتلو قول الله عز وجل : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس » . ولكنه لم يكد يبلغ باب الدار حتى كان سليم يجذبه جذبا عنيفا وهو يقول : لقد تركت دنانيرك أيها الاحمق ! خذها وادفعها الى أبيك ، فليس عليك من اثمها شيء . ولو عرفت أنك سترد الى قلبه الهدوء والى نفسه الامن وستمكنه من أن يطعم صبية جياعا ويكسو جوارى كدن يبتذلن لما ترددت ولا تحرجت

وبعد قليل قال أين تذهب بهذا الوجه الذى كسته الظلمة وعاد اليه الانقباض ؟! أقسم لا تخرج حتى تستبدل به وجها آخر ، ثم جذبه اليه جذبة كادت تخلع عنه جبته .

وما أقبل المساء حتى كان خالد قد لقى أباه مستحييا ووضع فى كفه الدنانير متأثما ، فابتسم الشيخ ابتسامة فيها خجل كثير ، وقال لابنه : أقم فستشهد العشاءين مع الشيخ .

وأقبل الصبح من غد ، فرأى عليا فى غرفة أم خالد وقد رفع

الى الله كثيرا من الصلاة والاستغفار والندم ، وسكب كثيرا من الدموع ، لانه لقى ابنه البر بما يكره ، وكان له ظالما وعليه متجنيا ، ثم تمنى على أم خالد ألا تضطغن عليه ما قدم الى ابنهما من مكروه . ثم لا يكاد يفرغ من قهوته حتى يطـــرق الباب ويستأذن الخادم لسليم . فاذا دخل وحيا وضع فى يد عمه دنانير وهو يقول : معذرة اليك يا عم ! فلو استطعت لاديت اليك أكثر منها . فان نفقتك كثيرة ونحن مقبلـون عـلى شـهر الصوم . قال الشيخ وقد جادت عيناه آخر الامر ببعض الدمع: وصلتك رحم يا بن أخى ! فقد أعنتنى فى وقت الحـاجة الى المعونة .

ولما انصرف سليم لم يكن على يشك فى أن الله قد استمع لدعائه الكثير وعفا له عما أسلف الى ابنه من مساءة . ولولا ذلك لما ساق اليه هذا الرزق الذى لم يكن يرجوه .

وقال الشيخ ذات ليلة لخاصته مقالته لهم فى العام الماضى، وآذنهم بأنه يستعد للحج ، وبأن من شاء منهم أن يصحبه فليعد للسفر الطويل عدته ، وتقدم اليهم ان يؤذنوا فى الفقـــراء وأوساط الناس بأن عليه نفقة من أراد منهم أن يحج بيت الله ولم يجد ما ينفق . ثم التفت الى الحاج مسعود وقال ضاحكا : أما أنت يا مسعود فقاعد هذا العام فقد أتممت حججك السبع . قال مسعود وقد ظهر على وجهه غضب شـــديد لم يلبث ان استحال الى حنان رحيم انهلت له دموعه حتى بللت لحيته الكثة. قال مسعود : أغاضب أنت على يا سيدنا ؟ قال الشيخ وهـو يغرق فى الضحك : غفر الله لمسعود ! غفر الله لمسعود ! قوم يضحكون ، وقوم يبكون . انما قصدت الى دعابتك يامسعود، ولو أردت الجد لما تحدثت اليك . هنالك تهلل وجه مسعود ونهض مسرعا فأكب على رأس الشيخ يقبله وهو يقول : لقد

كنت نذرت لله ألا يحج شيخنا الكبير الا صحبته . فلما انتقل الى جوار الله جددت النذر ألا تحج الا صحبتك ، لا يمنعنى من ذلك الا أن أبلغ أرذل العمر وتعجز قدماى عن حملى . فأعاد الشيخ مقالته : غفر الله لمسعود ، ثم قال فى صوت ملؤه الجد: فأما وقد نذرت هذا النذر فأنت صاحب حجنا منذ الان،فدبر أمر سفرنا واقامتنا ، وأنفق على ذلك من مالنافان فيه سعة . قال مسعود : ومن مالى فان فيه سعة أيضا . وقال بعض الحاضرين : أفلا نؤذن عليا بما آذننا به مولانا الشيخ ؟ فسكت الشيخ حينا ثم قال : لا تفعلوا ، فانعليا لا يحجالعام . وعرف على ما كان من حديث الشيخ الى أصحابه ،ولكنه لم يتأهب للحج ، ولم يزر الشيخ الا لماما ، ولم يخرج مع الناس لوداع القافلة . فلما كان الشيخ فى بعض الطريق ذكروا له عليا وتخلفه عن الحج وتقصيره فى الوداع ، وتلابعض أصحابالشيخ قول الله عز وجل : « ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ،ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين » فلما سمع الشيخ هذه الاية ظهر الغضب فى وجهه وقال : صدق الله العظيم ، ثم أطرق ساعة ، ثم رفع رأسه وقال فى صوت تحطمه العبرة : لا تتل هذه الاية يا فلان ، ولكن اتل قول الله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » . أما ان أخاكم لا يستطيع الى الحج سبيلا . وقدكنتم أحرياء أن تبروه وترفقوا به وتصلوه خيرا مما فعلتم .ثم أطرق اطراقة قصيرة وهو يتلو : « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحمأخيه ميتا» . ثم طال صمتالشيخ وصمت أصحابه ، لا يقول الشيخ شيئا ، ولا يجرؤ أحد من أصحابه آن يقول بحضرته شيئا . وصاحب المقالة مستخذ قد خفض رأسه حياء ، والقوم قلقون لا يدرون كيف يستأنفون ما كان عليه أمرهم من غبطة ورضا . فلما طال عليهم هذا الصمت المخيف اجترأ مسعود فقال . سبحان الله ! ثم اتجه الى الشيخ

وهو يقول فى صوته المتهدج : ما اغراق مولانا فى هذا الصمت المخيف ؟ انا كغيرنا من الناس نخطىء ونصيب ، ولكننانحسن أن نتوب الى الله من خطايانا ، فلا تعذبنا بهذا الاعراض ، ومر بما تشاء فرفع الشيخ رأسه وهو يقول : غفر الله لمسعود ! أما فلان – يريد صاحب المقالة – فيغيب عنى وجهه ثلاثةأيام ثم يلقانى اذا صليت الصبح ، فعسى الله أن يرضى عنه قلبى . هنالك تنحى صاحب المقالة مستخذيا لا ينظر الى أحد ولايكاد ينظر اليه أحد . فلما انصرف قال الشيخ لاصحابه : لاتهجروا أخاكم ، ولكن واسوه وأحسنوا النصح له . أما أنت يامسعود فاذا عدنا من حجنا فازفف الى خالد أهله فان ذلك سيرفه على . قال مسعود : سمعا وطاعة يا مولاى .

ولم تمض على عودة الشيخ وأصحابه من الحج أشهر حتى كانت قد زفت الى زوجها ، وحتى كان خالد قد اتخذ له فى المدينة دارا مستقلة أقام فبها مع أهله ومن وكل مسعود بخدمة ابنته من الرجال والنساء . وقد أصبحت دار خالد دار الرغد والخير . لا تنقطع عنها هدايا مسعود الى ابنته وصهره . وكان مسعود يلم بابنته بين حين وحين ، فيوصيها بنفيسة وابنتيها خيرا ، ويلقى اليها فى السر أن تبر عليا وبنيه . فما أكثر ما كانت ترسل «منى» الى دار على بالطرف والهدايا على علم من زوجها حينا وعلى غير علم منه فى أكثر الاحيان ، تهدى مرة الى هذه ومرة الى تلكمن أزواج الشيخ . والشيخ يرى هذا فلا يهتم له أول الامر ، حتى اذا كثر ذلك من «منى» خلا الى ابنه ذات يوم فقال له ، يا بنى ، لا تثقل على أهلك ولا على حميك ، فان فى بعض ما ترسلون الى مقنعا . قال خالد :والله يا أبت ما تكلفت شيئا وما علمت ان امرأتى تكلفت شيئا ،وان الخير لكثير ، وان الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء . ولكن عليا أعاد مثل هذا الحديث على مسعود . فغضب مسعود حتى اضطربت لحيته ، ورق مسعود حتى انهلت دموعه ، ثم قال لصاحبه : أتريد أن أشكوك الى الشيخ ؟!

هنالك اضطرب على بعض الاضطراب وظهر على وجهه الخجل وقال : وددت لو يستطيع الشيخ أن ينسانى . قال مسعود : هيهات ! ليس الى ذلك سبيل . انه ليذكرك فى كل يوم ، وانه يستحيى أن يدعوك . قال على : يستحيى أن يدعونى وأستحيى أن أزوره ! وهو يذكرنى فى كل يوم وأنا أذكره فى كل ساعة! ما كنت أحسب أن الدهر يفعل بالناس مثل ما فعل به وبى قال مسعود : لم يفعل بكما الدهر شيئا ، وانما أنت أسأت الى الشيخ وأسأت الى نفسك . انك لا تحسن احتمال المحنة ولا الثبات للخطب . ان مال الله غاد ورائح ، يصبح الانسان غنيا ويمسى فقيرا . وان الرجل الكريم هو الذى يحسن احتمال الفقر كما يحسن احتمال الغنى . وقد عرفت كيف تحتمل الغنى فكنت خيرا جوادا ، تواسى الضعيف ، وتطعم الجائع ، وتكسو العارى وتعين على نوائب الدهر . ولكنك لم تحسن احتمال الفقر ، فاستحييت وليس فى الفقر حياء ، واستخذيت وليس فى الفقر استخذاء . انك حين تستخفى بفقرك وتتكلف ما تتكلف من الجهد لا تزيد على أن تلوم الله لانه هو الذى يغنى ويفقر . والله لا يلام ولا يسأل عما يفعل ، وانما نحن الذين يلامون ويسألون عما يفعلون . أتريد ان تسمع لى وتقبل نصيحتى ؟ قال على وهو ينتحب : وما ذاك ؟ قال الحاج مسعود : نصلى العصر معا ثم نسعى الى الشيخ ، فانك ان استأنفت لقاءه والانس الى مجلسه لم تعد الى مثل ما أنت فيه الان . ولم يقبل الليل حتى كان على فى مجلس الشيخ كدأبه قبل أن تلم به المحنة ، وكدأبه فى مجلس الشيخ الكبير .

على أن العام لم ينته حتى ألم الموت بدار على فانتزع منها امرأة كانت أشوق ما تكون اليه وأزهد ما تكون فى الحياة . رد أم نفيسة الى زوجها عبد الرحمن فى الدار الآخرة . وكان هذا الموت آية لعلى أثبتت له أن فقره ومحنته لم يغيرا من مكانته

فى المدينة شيئا ، فقد هرع أهل المدينة كلهم الى دار على يواسونه ويشيعون جنازته ، يتقدمهم الشيخ . وكان الاسبوع الاول لوفاة هذه المرأة الصالحة أسبوعا حافلا فى دار على . قرىء فيه القرآن كأحسن ما يقرأ فى أكثر الدور ثراء وغنى ، وأقام الشيخ فيه بنفسه حلقة الذكر مرات . وقال على لنفسه غير مرة : صدق الحاج مسعود ! ان الرجل الكريم هو الذى يحسن احتمال الفقر ، كما يحسن احتمال الغنى . ولكن عليا منذ ذلك الوقت قطع على نفسه عهدا ليستأنفن حياة أخرى فيها جد كثير ، وزهد فى اللذات ، وانصراف عن متاع الدنيا ، وقناعة بما قسم الله له من الرزق .

مراسلات نادى القصة يكون باسم يوسف السباعى بنادى القصة ميدان الحرية رقم ١٥ تليفون : ٢١٠٠٥

- ١٩ -

قالت نفيسة لصديقتها زبيدة وهى تواسيها بين نوحتين ، حين انقطع فجاءة تعديد المعددة ، وسكت المأتم ودارت عليهن قهوة يشربنها فى صمت عميق ودموع منها ما لايزال يساقط قطرات متقطعة ، ومنها مالا يزال ينهل وابلا غزيرا ، ومنها ما يريد ان يجف لولا قطرة تمده بين حين وحين ـ قالت نفيسة لصديقتها زبيدة هامسة كأنما تسر اليها شيئا : لو تعلمين انى لا احزن على فقد امى بمقدار ما احزن على دفنها فى هـــذه المدينة من وراء النهر بعيدة عن ابى واخوى أولئك الذين دفنوا فى القاهرة ، فهم لم يفترقوا فى الحياة قط الا هذه الاسفار التى كان يعمد اليها ابى لتجارته ، وكانت امى اذا حدثته عن كثرة هذه الاسفار وما تقتضيه من فراق ، سمعته يقول لها فى أناة : انما نحن فى هذه الدار على سفر ، وسيكون بيننا جوار متصل فى الدار الاخرة ان شاء الله لا تشكين معه بينا

ولا فراقا .

قالت زبيدة : وما يحزنك من ذلك ؟ لقد التقيا منذ يومين وهما يسعدان الان بهذا الجوار المتصل الذى طالما تمنياه .

قالت نفيسة وهى تكفكف عبرة اخذت تنهل : قد التقيا ! وانى يكون لهما اللقاء ! بل انى يكون لهما التزاور واحدهما فى القاهرة والاخرى فى هذه المدينة من وراء النهر والامـــد بينهما بعيد !

قالت زبيدة : قد افترق جسماهما ، رقد احدهمـــا فى القاهرة ، ورقد الاخر هنا ، ولكن روحيهما قد التقيا فى رضوان الله ، حتى اذا كان يوم القيامة التقى الروحان والجسمان جميعا فى الجنة . بذلك حدثنا شيوخنا ، وبذلك يحدثنى سليم كلما ذكرنا الموت ، وما اكثر ما نذكره !

قالت نفيسة : افترق جسماهما والتقى روحاهما ! هذا كلام لا افهمه ولا اصدقه . ولو كان حقا لما رأيت ابى فى الليلة الاولى لوفاة امى وهو يلقى الى من بعيد هذا الامر : قولى لهم يدفنوها معى فانى اليها مشوق ، وقد وعدتها بذلك قبل ان أموت . ولو كان هذا حقا لما رأيت امى فى الليلة الثانية تلقى الى هذا الامر من بعيد : قولى لهم يدفنونى معه فانى مشـوقة اليه ، وقد وعدتنى بذلك قبل ان يموت . اترين لو ان روحيهما التقيا اكانا يطلبان الى هذا الذى تواعدا عليه قبل ان يموتا ؟

قالت زبيدة ، وقد اخذ شىء من الخوف الخفى يتسرب الى قلبها فتسرى له فى جسمها كله رعدة خفيفة ـ قالت زبيدة : أفتصدقين الاحلام وتكذبين مقالة الشيخ !؟ ان الاحلام كثيرا ما تكذبنا ، ولكن الشيخ لا يقول الا الحق .

قالت نفيسة : أما أنى لا أدرى أيهما يلم بى الليلة اذا غفوت فيلقى الى هذا الامر الذى لا استطيع له تنفيذا . فكيف لى بنقل امى الى القاهرة وانا لا اقدر على شىء ! وكيف لى بالتحدث اليه أو الى ابيه فى شىء من ذلك وقد فعلا اكثر مما كان ينبغى ان يفعلا . قالت زبيدة : اليه ! الى من ؟ قالت نفيسة : اليه !

انك لتعرفينه . ففطنت زبيدة الى انها انما تشير الى خالد ، وكانت لا تسميه اذا تحدثت عنه ، وانما تشير اليه دائما بالضمير . قالت زبيدة : قد فهمت سأتحدث اليه والى ابيه والى سليم .

واستأنفت المعددة غناءها الذى كان يمزق القلوب ، واستأنف المأتم الرد عليها والبكاء معها ، وانهلت الدموع غزارا ، واضطربت الاصوات فى الحلوق ، وألمت النوبات العصبية ببعض النائحات فأسرع اليهن سائر نساء المأتم ، يهدئنهن بالقول والعمل ، وينضحن على وجوههن الماء . وانصرفت زبيدة من ذلك اليوم وهى تشفق على نفيسة من خطر جديد ، وتزمع ان تتحدث الى زوجها فى نقل هذه المتوفاة الى القاهرة . ولست ادرى اتحدثت فى ذلك ام لم تجد الى الحديث فيه سبيلا ، ولكن الشىء المحقق هو ان الليل جعل يخيف نفيسة اشد الخوف كلما مالت الشمس الى الغروب . وكان هذا الخوف يزداد قوة وعنفا كلما تقدم الليل . وكان ابغض شىء الى نفيسة ان تأوى الى مضجعها مخافة ان يزورها النوم فيزورها معه طيف هذا او تلك من ابويها ، فكانت تدافع النوم بالقهوة تسرف فى شربها اذا اظلم الليل ، لا تكاد تفرغ من كأس حتى تعمد الى كأس اخرى . ثم اشفقت من العزلة التى كان الليل يضطرها اليها اذا هدأ من حولها كل شىء ونام من حولها كل انسان ، فكانت تستبقى ابنتيها معها حتى يتقدم الليل ، فاذا عبث النعاس بالصبيتين ووضع رأس كل واحدة منهما على احدى فخذيها ، ادركها شىء من الجزع وهمت ان توقظهما ، لولا ان نسيم كانت تسرع الى الصبيتين فتحملهما الى مضجعهما ، ثم تعود الى مولاتها فتسليها بالقصص والحديث ، وما تزال الايام ، حتى اضطرت الخادم الى أن تنام فى غرفة سيدتها ، تلقى لنفسها وسادة على الارض وما تزال بسيدتها فى حديث وقصص ، حتى اذا احست منها استسلاما للراحة او اذعانا لشىء يشبه النوم استلقت هى على

وسادتها فنامت احدى عينيها وظلت الاخرى مستيقظة لحراسة سيدتها من هذا الطائف المزعج الذى كان يلم بها كلما اطمأنت او كادت تطمئن الى النعاس .

وقد عاشت نفيسة ما شاء الله لها ان تعيش ، وعمرت ماأذن الله لها ان تعمر دون ان تطمئن الى النوم ليلة كاملة ، انما كانت تهب من نومها اثناء الليل فزعة جزعة ، لانها رأت امها او أباها ، وسمعتهما يلقيان اليها هذا الامر دائما : قولى لهم يدفنوها معى فأنا اليها مشوق وقد وعدتها بذلك قبل ان اموت ، أو قولى لهم يدفنونى معه فأنا اليه مشوقة ، وقد وعدنى بذلك قبل ان يموت . وكثيرا ما رئيت شفتاها اثناء النهار تتحركان دون ان يصدر عنهما صوت ، فلم يشك من كان حولها فى انها تردد هذا الامر الذى صدر اليها من احد ابويها اثناء الليل .

وقد قصت نسيم بعض هذا على سيدها خالد ، فاستمع له ثم انصرف عن مولاته وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويقول : « أضغاث احلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين » . وقص خالد ما سمع من مولاته على ابيه ، فقال : يرحم الله عبد الرحمن ! ويرحم الله امرأته ! ويلطف الله بنفيسة ! هون عليك يا بنى وارفق بها ، فانما طائف الليل هذا الذى يزورها كجنية البيت التى تراءت لها ذات مساء وانبأتها بأنك تريد ان تدخل عليها ضرة فى بيتها . اتذكر جنية البيت !؟ ثم سكت على لحظة ، ثم استأنف حديثه قائلا : ومع ذلك فيحسن ان نعيد هذا الحديث على الشيخ ، فلعله ان يرى لنا فى الامر رأيا . وأعاد على بمحضر ابنه على الشيخ حديث نفيسة ، فابتسم الشيخ ابتسامة حزينة وقال : يلطف الله بها ، انما هو طائف من الشيطان قد أولع بها فصرفها عن الحياة وصرف عنها الحياة ! ومع ذلك فارفقوا بها وجنبوها العزلة ما وجدتم الى ذلك سبيلا ونظر الشيخ الى على فاذا دمعتان تترقرقان فى عينيه ثم لاتلبثان ان تنحدرا على خديه لتضيعا فى لحيته الكثة ، واذا هو يقول :

اللهم ارحم ام خالد ، واغفر لى وللشيخ الكبير ولعبد الرحمن ، فقد انبأتنى انى حين ازوج هذين الشابين لا أزيد على ان اغرس فى بيتى شجرة البؤس . لقد والله غرستها ، فثبتت أصولها فى الارض ، وارتفعت اغصانها فى السماء ، واخذت تؤتى ثمرها خبيثا مرا . قال الشيخ وهو يضحك : ما اشد ماتعبث الاوهام بعقول العقلاء ! وانصرف خالد الى اهله وهو يطيل التفكير فى شجرة البؤس هذه ، يسأل نفسه عن اصولها التى رسخت فى الارض ، وفروعها التى ارتفعت فى السماء،ولكنه لا يسأل نفسه عن ثمراتها المرة الخبيثة ، فقد ذاق بعضها ووجد طعمها المر الخبيث حين كشف له الغطاء عن قبح زوجه ، وحين ألزم المضاهاة بين وجهى الصبيتين ووجه امهما ، وحين لعب الشيطان بنفسه فوسوس له ما وسوس ، بل زين له ما زين . بل لقد كانت شجرة البؤس هذه مبكرة فى ايتاء اكلها ، فقد ذاق اول ثمرها ولما يمض على زواجه الا وقت قصير رحم الله امه ! لقد كانت كارهة اذا لهذا الزواج نابية عنه . وأكبر الظن أنه هو الذى قتلها .

- ٢٠ -

وقد كان خالد سعيدا ناعم البال فى حياته الجديدة ،مغتبطا بما اتيح له من نعمة حين تزوج «منى» واصهر الى الحاج مسعود ولم يمض عام وبعض العام على هذا الصهر حتى رزقته « منى » غلاما ذكرا سماه محمدا . وصور ما شئت من سروره بمقدم هذا الغلام الذى جاء حسن الطلعة جميل المنظر ميمون النقيبة بعد هاتين الصبيتين البائستين . نعم ! ان الله لحكمة تعيا العقول عن ادراك كنهها وتعمق حقائقها . لقد غرس ابوه فى داره شجرة البؤس فشقيت بها امه ، وشقيت بها نفيسة واسرتها ، وشقيت بها الصبيتان . ولقد غرس الحاج مسعود فى داره شجرة النعيم فسعد بها هو ، وسعد بها حموه ، وسعدت بها منى ، فليت ام خالد عاشت حتى تشارك فى هذا النعيم وحتى تسعد بهذا الحفيد ! وكان قلب خالد يخفق كلما ذكر هذه النعمة ، وما اكثر ما كان يذكرها،

لانه كان يشفق ان تسقط فى اثنائها ثمرة من اثمار تلك الشجرة البغيضة التى رسخت اصولها ونمت فرعها فى دار ابيه ·
وقد تواترت نعم الله على خالد ، فرزقته « منى » غلاما آخر وغلاما ثالثا ، حتى شارك امرأته فى الخوف من حسد الحاسدين على هؤلاء الصبية الذكور الذين اخذ بعضهم يتبع بعضا لا تخالف بينهم صبية ·

ويصبح خالد ذات يوم واذا الاسرة فى خلاف شديد وخصام يوشك ان يبلغ العنف · فقد تحدث الشيخ فى مجلسه أمس ، ولم يكن خالد حاضرا هذا المجلس ، بأنه قد وجد لخالد عملا خيرا من عمله فى محكمة المدينة يؤجر عليه بما يعدل راتبه مرتين غير ما يسوقه اليه من رزق لا حرج فيه · فهذا العمل فى بعض مرافق الدائرة السنية ، وما اكثر الخير الذى يساق مباركا موفورا الى الذين يعملون فى مرافق الدائرة السنية ! ولاعيب لهذا العمل الا انه سيضطر خالدا الى ترك مدينته واسرته وشيخه وذوى قرابته لينتقل الى مدينة اخرى فى اعلى الاقليم مما يلى الصعيد · ولكن خالدا رجل لا يجد بالانتقال بأسا ولا يلقى فيه مشقة ، والامد بعد قريب بين المدينتين وما هى الا ساعات لمن يقطع الطريق ماشيا ، وساعات اقل لمن يقطعها على دابة ، فأما اذا اتخذ المسافر هذا البدع الحديد الذى جاء من القاهرة منذ حين والذى هو حديد يمشى على حديد ، ويرسل بين يديه دخانا وغبارا ، ويشق الجو من حوله بالصفير والازيز والشهيق ، هذا الذى يسمونه القطار ، فانه يقطع المسافة فى ساعة وبعض ساعة · وما ينبغى لخالد أن يضيع هذه الفرصة أو أن يخيب أمل الشيخ فيه · فلم يكن الشيخ حين وجد هذا العمل واختار له خالدا يفكر فى هذا الفتى وأسرته وحدهما ، وانما كان يفكر مع ذلك فى نفسه وفى طريقته أيضا فقد كانت هذه المدينة التى يريد ان يرسل اليها خالدا هى المدينة الوحيدة التى استعصت عليه بين مدن الاقليم فلم ترسل اليه الوفود والهدايا فى المواسم والاعياد ولم تنتدب من فقرائها

ولا من أغنيائها من يصحب الشيخ فى حجه على نفقته الخاصة أو على نفقة الشيخ ، ولم تكن تحفل به ان عبرها مع أصحابه مسافرين على ظهور الخيل أو مر بها مع أصحابه مسافرين على ظهر النيل ، قد استقر الشيخ فى ذهبيته واستقر أصحابه فى السفن التى كانت تتلوها · بل كثيرا ما تجهمت المدينة لهؤلاء السفر الغرباء ، حتى كان الشيخ يأمر ألا ينزل أصحابه بها ، وألا ترسو سفنه على شواطئها مخافة أن يصيبه ويصيبهم من أهلها بعض ما يكرهون · ذلك أن هذه المدينة وما حولها من القرى كان لها شيخها أو كان لها بيت طريقتها الذى تلتف حوله وتعتز به وتثوب اليه عند الملمات ، وتنافس به غيره من المشايخ وبيوت المشايخ ·

وكان الشيخ الكبير رحمه الله لا يعنى بهذه الاشياء ، ولا يحفل بهذه الصغائر ، ولا يلتفت الى من يقبل عليه او يدبر عنه ، لانه لم يكن يبتغى استعلاء ولاجاها ولابعد صوت، وانما كان يرى حياته جهادا فى سبيل الله فمن ثاب اليه تلقاه لقاء حسنا وعلمه مما علمه الله ، ومن نأى عنه لم يفكر فيه الا مستغفرا له وراجيا له الخير والصلاح · فأما الشيخ الشاب فمع انه لم يقصر فى ذات الله فانه على ذلك لم يقصر فى ذات الدنيا · ولم يكن يطمئن الى ان تقوم المدينة مستعصية مريبة بين مدن الاقليم · فكان يتمنى ان يرسل اليها رسولا ، اويقر فيها داعية ، او يكون له فيها منزل ينزل فيه اذا مر بالمدينة برا او من طريق النيل · فلما وجد هذا العمل – واكبر الظن انه قد جد حتى وجده – رضيت نفسه واستبشرت ، وحزم امره واصطنع السياسة والحكمة ، فلم يفكر فى ان يرسل الى المدينة رسولا او يقر فيها داعية ، وانما اكتفى اول الامر بأن يذهب هذا الموظف فيقيم فى المدينة كغيره من موظفى الدائرة السنية ، ويتخذ لنفسه فيها دارا رحبة وينفق فيها راتبه واكثر من راتبه ، فسيأتيه فيها رزق كثير ، وسيمده حموه بخير كثير ، وسيألفه اهل المدينة ويطمئنون اليه ويجعلون له بينهم

مكانا رفيعا . فاذا استقر هذا الموظف فى بيئته الجديدة تلك عاما وعاما ، ومر الشيخ بالمدينة مصعدا او مصوبا ، لم يكن بأس من ان ينزل ضيفا عليه هو واصحابه . وما كان اكثر اصحابه هؤلاء ! وهناك يفرح من يفرح ، ويحزن من يحزن ، ويغتاظ من يغتاظ ، ولكنه سينزل فى المدينة ويقيم فيها اليوم او الايام ، ويقيم فيها حلقة الذكر ايضا . وكان الشيخ يطرب طربا غريبا اذا رأى فى خياله انه سيقيم حلقة الذكر فى هذه المدينة التى استعصت على ابيه ولكنها لن تستعصى عليه .

ولم يتحدث الشيخ بشىء من هذا الى أصحابه حين ذكر لهم انه وجد هذا العمل واختار له خالدا ، وانما ذكر مزايا هذا العمل الجديد وحاجة خالد الى اتساع الرزق ، فقد أصبح صاحب اسرة ضخمة له بنون وبنات ، وينبغى ان يلتمس لهم من رزق الله . ولمح تلميحا خفيفا بأننا قد نزور خالدا بين حين وحين . فرضى أصحابه ، وحمد بعضهم للشيخ هذا السعى الحسن ، ووجد بعضهم على الشيخ فى دخيلة نفسه ، لانه لم يجد الا خالدا يؤثره بهذا العمل الذى يغل على صاحبه خيرا كثيرا . فأما على ومسعود فقد سمعا ورضيت قلوبهماوابتهجت نفوسهما ، وشكرا للشيخ عطفه وحبه : يشكره على باسما ، ويشكره الحاج مسعود ودموعه تنهل . ويجد الشيخ ما يرضيه من بكاء هذا وابتسام ذاك .

وعاد على ومسعود الى اهلهما حين تقدم الليل . واصبح خالد فغدا على عمله فى المحكمة . فلما عاد الى أهله رأى فى داره اضطرابا واختلافا . فلما سأل عن ذلك انبأته « منى » وهى تضحك بأن الشيخ قد وجد له عملا اخر فى مدينة اخرى من مدن الاقليم ، وان امها ضيقة بهذا الانتقال رافضة له ، لانها لا تحب ان تفارق ابنتها ولا ان تفارق حفدتها ، وانما تريد ان تراهم متى شاءت ، تريد ان تراهم مصبحة ان اعجبها ان تراهم مصبحة ، وان تراهم ممسية ان احبت ان تراهم اخر النهار ، وان يزوروها ان ارادوا وتستزيرهم هى ان ارادت .

فأما هذه المدينة التى يسافر المسافر اليها على ظهور الخيل او الابل او الحمر او فى هذا القطار البغيض ، فليس لها فيها أرب . لن تأذن بأن يفرق مفرق بينها وبين ابنتها ، وحسبها بالموت مفرقا للمحبين . فاذا ذكر لها ارتفاع الراتب وكثرة ما سيصيب ابنتها من الخير سخرت من ذلك ورفعت له كتفيها وقالت : ما حاجة خالد الى ارتفاع الراتب والى هدايا الناس والخير عندنا كثير !! وهل شكا خالد او احد من اهله تقتيرا فى الرزق او ضيقا فى ذات اليد ؟! فاذا ذكر لها ان الشيخ هو الذى وجد هذا العمل واختار له خالدا ، اخذها غيظ شديد وقالت : ان اتباع الشيخ كثيرون ، منهم الشباب والكهول والشيوخ ، فما باله لم يختر الا خالدا ؟ خلوا بينى وبين الشيخ فلئن لقيته لاغيرن من رأيه ، فان لم استطع فسأعصى امره مجاهرة له بالعصيان . أفتظنون انى اخاف الشيخ او افرق منه ؟! لقد رأيته صبيا يدرج ، ولقد لاعبته وداعبته قبل ان يبلغ العاشرة من عمره . اتخذوه لكم شيخا ، فأما شيخى أنا فقد مات ، ولو كان حيا ما فرق بينى وبين ابنتى . وكان زوجها يحاول ارضاءها عن اختيار الشيخ ، يلطف لها حينا ، ويعنف بها حينا أخر ، فلا يبلغ منها شيئا . فلما ارتفع الضحى اقبلت الى ابنتها ثائرة تريد أن تنتقل اليها الثورة ، عصية تريد ان تحملها على العصيان . ولكنها تحدثت وتحدثت الى ابنتها ، فلم تر فيها ميلا الى الثورة ،ولااستعدادا للعصيان،فلما سألتها مغيظة عن رأيها ، قالت « منى » فى صوت هادىء مضطرب بعض الشىء : ومتى كان لى فى مثل ذلك رأى ؟! انما الرأى لخالد ، فأنا مقيمة ان اقام ، ومرتحلة ان ارتحل . هنالك تحولت ثورة الام فجاءة الى حزن عميق ، فانحازت الى زاوية من زوايا الحجرة التى كانت تتحدث فيها الى ابنتها ، واغرقت فى بكاء صامت متصل . ولو كشف للناس عما كان فى قلبها اذ ذاك لرأوا فيه شيئا من خيبة الامل والاستعداد للاذعان ، فقد رأت من زوجها اصرارا ، ومن ابنتها ايثارا لطاعة الزوج .

وماذا تستطيع ان تصنع وحدها امام هذه القوى التى تكاثرت وتظاهرت لا تريد الا ان تفرق بينها وبين ابنتها ! ومتى لقيت من الحياة خيرا ! أما زوجها فمشغول بشيخه وتجارته . واما بناتها فلا تكاد احداهن تتزوج حتى تنسى كل شيء وكل انسان الا زوجها وبنيها . وماذا تنكر عليهن وهن لا يزدن على ان يسرن سيرتها ! فقد نسيت هى دارها وامها منذ زفت الى الحاج مسعود ، فلم لا تنسى « منى » دارها وامها منذ زفت الى خالد، ثم تنجم فى قلبها الساذج عاطفة مؤلمة تشبه الغيرة وما هى بالغيرة ، فهى لم تلد لزوجها الا بنات ، وهؤلاء بناتها يلدن لازواجهن البنين . فهن احسن منها حظا واعظم منها نصيبا من الخير ، واثر منها عند ازواجهن . ولو انها ولدت للحاج مسعود غلاما او غلامين لكانت له معها سيرة غير سيرته هذه . ثم تلوم البائسة نفسها على ما ساورها من سوء الظن بزوجها وهو الذى لم يقدم اليها الا خيرا وبرا ، وهو الذى لم يفكر فى ان يدخل عليها ضرة لعلها تلد له غلاما ، بل هو الذى لامها اشد اللوم وعنفها اشد التعنيف وأنذرها بأنه سيشكوها الى الشيخ حين ألحت عليه منذ سنين فى ان يتخذ زوجا ثانية لعلها تلد غلاما ، فما ينبغى ان يؤول امر هذه الدار الى البنات وأزواجهن من الغرباء . وكانت جادة فى هذا الالحاح ،وكانت قد اختارت للحاج مسعود فيما بينها وبين نفسها زوجته الثانية . ولكن الحاج مسعود كان جادا فى رفضه وجادا فى انذاره بأن يرفع امرها الى الشيخ . وقد زاد حبه لها منذ تلك المحنة ، واشتد عطفه عليها ، حتى لقد كان يصطحبها معه الى الحج ايثارا لها بالخير وكراهية لفراقها ، فما ينبغى ان يسوء ظنها به او يفسد رأيها فيه ، وما ينبغى لها الا ان تطيعه وتذعن لامره . انه سيفرق بينها وبين ابنتها ، فليكن مايريد، فلولا ان الله قد كتب ذلك لما خطر هذا الخاطر للشيخ ، ولما الح فيه الحاج مسعود . وهل خلق النساء فى هذه الحياة الا لطاعة الازواج والاذعان للقضاء المكتوب !

فلما عرف خالد ذلك تردد ساعة بين الرضا والسخط ،ولكنه لم يلبث ان اطمأن الى الرضا ، فهو لم يتعود ان يخالف عن امر الشيخ ، وهو مدين بما فى حياته كلها من خير وشر للشيخ ولابيه . فأما الشيخ الكبير فقد زوجه نفيسة واذاقه ثمرة البؤس ، ولكنه خطب له « منى » . واما الشيخ الشاب فقد زوجه منى وفتح له ابوابا من الخير . « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

وهو يقبل مع امرأته على حماته يسليانها ويعزيانها ويترضيانها حتى تظهر الرضا وفى نفسها اذعان ،ولكنه اذعان ساخط مغيظ.

فاذا قص خالد امره على أخيه وصديقه سليم ، قال له هذا ضاحكا : لم تنبىء بأمرك جاهلا ! فقد علمت منه مثل ما تعلم، وقد سررت له وحمدته للشيخ وان كنت لاضمر له حبا عميقا ، واكاد اندم على انى لست من اتباعه وشيعته . فلو قد كنت منهم مثلك لجاز ان يجد لى عملا كالذى وجده لك ، يبسط لى فى الرزق ويخرجنى من هذه المدينة التى اخذت ابغضها اشد البغض واضيق بأهلها اشد الضيق . قال خالد : أتحب أن أكلمه فى ذلك ؟ قال سليم : لا تفعل ، فانى لم احسن رعاية حقه ، ولا ارانى قادرا على ان استأنف معه سيرة جديدة ،فقد الحقنى ابوه بعملى كما الحقك بعملك ، فوفيت انت للرجلين ، ووفيت انا للشيخ الكبير وقصرت فى ذات الشيخ الصغير . وماذا تريد ان اصنع ؟ لقد لاعبته صبيا ، وداعبته وخاصمته شابا ، فكيف تريدنى على ان ارى فيه الان شيخا له فضل ابيه، اترانى استطيع ان ادين لك بمثل ما تدين به للشيخ ، وانما نحن اتراب ، لعبنا معا ، ونشأنا معا ، ثم افترقت بنا طرق الحياة ، فأصبح هو شيخ طريق ، واصبحت انا كاتبا فى المديرية ، واصبحت انت كاتبا فى المحكمة . استغفر الله بل موظفا فى الدائرة السنية يقبض فى اخر الشهر ثمانية جنيهات لا اربعة . قال خالد وهو يضحك :صدق الله العظيم : « من يهد

الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » . ثم سكت خالد حينا ثم قال : ولكنى غير مطمئن الى هـذا الانتقال كل الاطمئنان . قال سليم : لا تكن محمقا ، راتب ضخم ، وخـير كثير ، وفراق لهذه المدينة ، ورضا الشيخ ، ماذا تريد اكثر من ذلك ؟! وهم خالد ان يتكلم فمضى سليم فى حـديثه قائلا : لا تهتم لنفيسة وابنتيها ، فسأرعاهن بعد سفرك كما ترعاهن انت الان . وانت تعرف بر زبيدة بهن وحبها لهن . اليست جلنار خطب سالم ؟! قال خالد وهو يضحك : وصلتك رحم ! فما كنت اشك انك ستقوم مقامى منهن . قال سليم : ولكن ذلك لن يعفيك من ان ترزقهن وتعين اباك . قال خالد : وهل فى ذلك شك ؟ سأيسر عليهن فى الرزق ، وسأضعف لابى معونته . ولم تمض اسابيع حتى كان خالد قد اسـتقر فى مدينته تلك النائية القريبة ، واستأنف عمله الجديد . ثم لم تمض اشهر حتى كانت « منى » قد رزقته غلاما رابعا .

- ٢١ -

قال سليم وهو مغرق فى الضحك ـ وكان قد جاء زائر الخالد وأسرته ـ : ماذا تريد ؟ لقد اصبحت تلك الناحية من دار ابيك بيمارستانا ، وأصبحت زبيدة ممرضة لاحدى المجانين . فأما نسيم فقد أمرتها أن تعزل الصبيتين وأن تعنى بهما ، وألاتجعل بينهما وبين أمهما سببا حتى تنجاب عنها هذه المحنة . وأظنك توافقنى على أن الدور لم تقم ليمرض فيها المجانين ، فللمجانين دارهم الخاصة فى القاهرة . وأظنك توافقنى أيضا عـلى أن زبيدة ليست هى التى تحسن رعاية المجانين والقيام عليهم . فأطعنى يا بنى ، ولنرسل نفيسة الى حيث ينبغى أن تقيم .

قال خالد وفى عينيه دمعتان تريدان أن تسقطا ولكنـه يعلقهما بين جفونه فى شىء من الجهد : حاش لله ! لن يكون هذا وأنا حى . وماذا أقول لعبد الرحمن وزوجه اذا التقينـا فى الآخرة ؟! وماذا أقول للشيخ اذا سألنى عن العهد الذى أعطيته

على نفسى ؟ وكيف أرضى لابنتى أن يقال ان أمهمها قد اضطرت الى مستشفى المجانين ؟!

قال سليم فى شىء من الحد : وماذا تريد أن تصنع اذا ؟فان حال نفيسة لا تطاق ، ولا سبيل الى تمريضها حيث هى الان وهم خالد أن يجيب ، ولكن « منى » سبقته الى الحديث فقالت: انما مكان نفيسة هنا فى هذه الدار، أقوم عليها أنا ومن معى، ويرعاها أبو ابنتيها من قريب كما كان يرعاها قبل أن ينتقل الى هذه المدينة . قال الرجلان معا : أو تفعلين ؟ قالت منى : ولم لا ؟ سأتخذ ابنتيها ابنتين لى ، وقد رزقنى الله أربعة غلمان ولم يرزقنى بنتا واحدة .قال سليم وعلى ثغره ابتسامة راضية وفى صوته حنان لم يعرف منه : بل تتخذين ابنتيها أختين لك فما أرى أن الفرق بينك وبين سميحة عظيم . أما خالد فقد عجز عن ضبط نفسه فأرسلها على سجيتها ، وعن امساك دموعه ففرق ما بين جفونه ، واذا هو ينتحب . واذا دموعه تنهمل على خديه انهمالا . فلمارأى سليم ذلك من أمره عاد الى المألوف من عنفه الظاهر وجفوته البادية ، فأغرق فى الضحك وهو يقول : ما رأيت كاليوم رجلا يشبه النساءوامرأة تشبه الرجال . انظر أيها الاحمق الى امرأتك وتعلم منها كيف يكون لقاء المحن ، وكيف يكون الثبات للخطوب . ألا تستحيى أن يدخل بنوك وأن يروك فى هذه الحال ! ثم التفت الى «منى» وهو يقول :: جففى له دموعه او ابغيهمنديلا يجفف به هذه الدموع . ولكنكما لم تسألانى كيف كان بدء هذه القصة التى انتهت بنفيسة الى ما هى فيه ، فان هذه القصة مؤلمة حقا ، ولكن فيها مع ذلك كثيرا من الغرابة وكثيرا من الفكاهة أيضا قالت منى : من الفكاهة ؟! قال سليم : نعم من الفكاهة . أتعرفين من دفع نفيسة الى هذه الحال ؟ قالت منى : من دفعها الى هذه الحال ؟ قال سليم : أتذكرين أم رضوان أم لعلك نسيتها ؟ قالت منى : أم رضوان ! وكيف أنساها ولم يبعد عهدى بها بعد ! قال سليم . فهى التى فتحت لنفيسة هذا الباب

المنكر الذى لا نعرف كيف نخرجها منه . قالت منى : وكيف ذاك ؟ قال سليم وهو يلتفت الى خالد : انك لتعرف دار أبيك فى ذلك اليوم من الشهر حين يهيأ الخبز ، وان أم رضوان هى التى تخبز لهم ،فتذكر ان كنت ناسيا ، كيف يكون الاستعداد لهذا اليوم : لا تكاد الشمس تجنح الى مغربها حتى تكون احدى نساء الدار مشغولة باعداد الخميرة ، فاذا تقدم الليل شيئا تعجل النساء نومهن ونامت فى الدار أم رضوان فلم يذقن النوم الا غرارا ، فهن ينهضن اذا انتصف الليل او قارب ثلثيه ،وهن يسرعن الى عجينهن ينفقن فيه الساعة أو أكثر من الساعة ، يتنافسن فيما يبذلن من جهد ، لكل واحدة منهن وعاؤها الذى تعجن فيه . حتى اذا أتممن ذلك وفرغن من تنافسهن ومايكون بينهن من حديث يهمسنه همسا او غناء يخافتن به مخافة أن يصل الى آذان الرجال . والجاهلات مع ذلك لا يلحظن ان ما يحدثن من الصوت فى أوعيتهن كاف لايقاظ المغرقين فى النوم العميق ، ولكنهن لا يتحدثن الا همسا ، ولا يتغنين الا اسرارا ، فاذا فرغن من عملهن ثبن الى مضاجعهن يلتمسن فيها علالة من نوم ريثما يرتفع العجين . وتنهض احداهن قبل صاحباتها لتحمى التنور ، فتمتلىء القاعة وهجا ، وتمتلىء الدار دخانا ، ويهب أهل الدار مع الفجر : فأما الرجال فيصلون ويتعجلون قهوتهم ويغدون مع الطير . وأما النساء فيسرعن او يطئن الى قاعة التنور ، فهن قد اتخذنها موعدا للقاء . هنالك تجلس أم رضوان الى جانب الفرن لتنضج الخبز ترقصه على مطرحتها حينا ثم تدفعه الى التنور دفعا ، ثم لا تلبث ان تخرجه بغصنها ذاك اليابس من سعف النخل . وما تزال ترقص رغيفا وتخرج رغيفا حتى يرتفع الضحى والنساء من حولها يداعبنها ويتلاغطن بأحاديث مختلفة ، فيها الجد وفيها الهزل وفيها الشكوى وفيها المؤاساة .

قال خالد وقد كاد يرد الى صباه : فما شأن هذا كله وما نحن فيه ؟ قال سليم : شأن هذا كله وما نحن فيه ، أن نفيسة

كانت بين النساء فى قاعة التنور، فقصت أم رضوان قصة سمعتها نفيسة فصدقتها وهمت أن تحققها ، فلما ردت عن ذلك بعد جهد أى جهد أصابها ما هى فيه الآن • قال خالد : وما قصة أم رضوان هذه ؟ قال سليم: كان النساء يتجاذبن أحاديث الجن وأحاديث الجنيات خاصة حين يظهرن اذا تقدم الليل ويرقصن فى ضوء القمر • فقالت أم رضوان : لقد رأيت فى قريتنا أمرا عجيبا ، رأيته بنفسى فلا أستطيع ان أكذبه ، ولو حدثنى به أحد غيرى لرفضته كل الرفض • قال النسوة : وماذا رأيت يا أم رضوان ؟ قالت : انى أخاف أن أقص عليكن ما رأيت • قال النسوة : بل قصيه علينا ، وألححن فى ذلك وفى نفوسهن ثقة بأن أم رضوان لم تر شيئا ، ولكنه الشوق الى القصص والرغبة فى الشعور بالخوف ، وهذه اللذة الغريبة التى يجدنها فى اثارة الفزع فى نفوسهن •

قالت أم رضوان : كنت أخبز فى قريتنا لجارة لنا ذات مساء كما أخبز الان ، وكانت صاحبة الدار أم عثمان جالسة معى بين أتراب لها رجارات ، وكنا نتحدث كما نتحدث الان ، واذا امرأة من أهل القرية تدخل علينا متفزعة متفجعة ، فاذا سألناها عما بها زعمت لنا أنها خرجت مع صاحباتها من آخر الليل بملأن جرارهن • وانهن لعائدات يغنين فى صوت خافت يستأنسن بالغناء فى وحشة الليل ، واذا هن يسمعن أصواتا لا يكدن يتبينها ، فيصغين ويمددن أبصارهن فيرين نساء يلطمن وجوههن وهن يتغنين بمثل ما تتغنى به النادبات فيقلن :

يا ساريات فى السحر ... يسعين فى ضوء القمر
اذا بدا الصبح الاغر ... فقلن يا نشر الزهر
ان أبا يحيى عمر ... أصابه سهم القدر
فهو صريع محتضر ... هل لك فيه من وطر

قالت أم رضوان : ولم تكد هذه المرأة تتم حديثها حتى رأينا أم عثمان قد ثارت مولولة ، فنقضت شعرها ، ومزقت ثيابها ،

وجعلت تلطم وجهها ، وتضرب صدرها ونحن نحاول ان نردها الى الهدوء ونسألها عن أمرها ، ولكنها بعد حين تثوب الى نفسها قليلا وتقول لنا فى صوت يقطعه الشهيق ، أنا نشر الزهر وعمر أبو يحيى هو أخى ! اقرأن تحيتى الى زوجى واستوصين بعثمان خيرا ، فلابد من أن أرى أخى قبل ان يموت وما أراني أدركه ، ولعلى أعود اليكن والى زوجه وابنى اذا انقضت أعوام العزاء ، فالعزاء عندنا لا يكون فى الايام ولا فى الاشهر انما يكون فى الاعوام الطوال • قالت أم رضوان : وكدنا نظن بصاحبتنا الجنون ، ولكن ما راعنا الا أن رأيناها تقذف نفسها فى التنور ، فلا نرى لها أثرا ولا نسمع لها حسا كانت جنية تمثلت لابى عثمان امرأة فتزوجها وولدت له ابنه عثمان ، ثم جاءها النبأ أن أخاها يحتضر فأسرعت للقائه قبل ان يموت ، وسلكت اليه اقرب الطرق وهى التنور حين يكون ملتهبا • والجنيات يألفن التنور ، ولذلك لا ينبغى أن يحمى التنور دون أن يذكر اسم الله عند اشعال النار ، فان ذلك يطرد منه الشياطين ، ويؤذن المسلمات بأنه سيحمى فيخرجن منه قبل ان يدركهن شىء من النار • ولم تكد ام رضوان ان تبلغ هذا الموضع من حديثها والنساء يسمعن لها مرتاعات ملتاعات منهن من تمسك الشهيق ، ومنهن من تدفعه ،حتى ثارت نفيسة كأنها الجنية وقد نثرت شعرها وقدت ثوبها وأخذت تعول اعوالا متصلا ، وتلطم وجهها ، وتضرب صدرها ، وهى تصيح وا أبتاه وا أماه ! ثم تدفع نفسها الى التنور تريد ان تدخل فيه لتسلك أقرب طريق الى أبويها ، كما دخلت فيه أم عثمان لتسلك أقرب طريق الى أخيها • هنالك يفيق النساء من خوفهن المتكلف وفزعهن المصطنع ، ويتكاثرن على نفيسة فيردونها عن التنور بعد جهد ، ثم يحملنها فى مشقة شاقة الى حجرتها ، وهى تضطرب بين أيديهن . تلطم هذه وتخمش تلك ، وهن على ذلك جاهدات فى حملها حتى يبلغن حجرتها • وقد سبقت احداهن الى أبيك وهو ذلك الصباح فى غرفة أم خالد مغرق فى

صلاته ودعائه ، فاذا دخلت عليه وأنبأته النبأ ، أسرع ساخطا
الى حجرة نفيسة . حتى اذا رآها ثائرة فائرة لا تستقر ولاتدع
من حولها يستقر ، دنا منها يريد أن يضع يده على رأسها وهو
يقرأ فى صوت مرتفع : « قل أعوذ برب الناس . ملك الناس .
اله الناس . من شر الوسواس الخناس الذى يوســـوس فى
صدور الناس من الجنة والناس » . ولكنه لا يكاد يبلغها حتى
تهب كأنها الشيطان مندفعة اليه فى عنف آخذة بلحيتهأخذا
شديدا ، والشيخ يتراجع فزعا جزعا ، وهو يلعن الجن والانس
جميعا . حتى اذابلغ باب الغرفة قرأ آيه الكرسى واستغفر الله
العظيم ، ثم التفت الى النساء وقال أوثقنها ان استطعتن ودعنها
حتى تهدأ ، فلابد من أن يدركها الاعياء بعد حين . وقد وفق
النساء لانفاذ امر الشيخ ، ثم تركن نفيسة موثقة فى حجرتها
تدعو أباها وأمها ،وتلعن الذين منعوهامن أن تسلكاليهماطريق
التنور ، وامرأة قائمة من الغرفة غير بعيد تلحظها خائفة وهى
تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . وينتهى الامر الى زبيدة
فتسرع اليها ، وما تزال بها حتى ترد اليها شيئا من هدوءبعد
أن ردت اليها حريتها داخل الحجرة . وهى منذ ذلك اليوم
تلزمها لا تكاد تفارقها الا ريثما تعود اليها بعد ان تعنى بما
يمكن أن تعنى به من شؤون البيت . أفترين أنك قادرة على
أن تسكنيها فى دارك وتمنحيها ما تحتاج اليه من الرعاية ؟
قالت منى : نعم ! يجب أن تأتى وان تقيم معنا ، وأنا واثقة
بأنها ستترك المرض وراءها فى مدينتكم تلك ، فقد كانت هذه
المدينة عليها شؤما .

وحملت نفيسة بعد أيام الى دار خالد فى مدينته تلك متعبة
منهوكة القوى . ولكن «منى» عرفت كيف ترعاها ، وترفق بها
وتتلطف لابنتيها حتى رد اليها شيء من عافية ، فأقامت فى
الدار ما شاء الله أن تقيم حية كالميتة ، وميتة كالحية .وشبحا
على كل حال ، لا يكاد من يراها يظن أنها كانت امرأة وأنهـا
كانت أما .

وستضعف الاسباب بيننا وبين المدينة التى نشأ فيها خالد
ونشأت فيها أسرته ، والتى نشأ فيها على واسرته ايضا ،والتى
أقام فيها الشيخ الكبير وخلفه عليها ابنه الشيخ الشـاب .
ستضعف هذه الاسباب وترث حتى توشك ان تنقطع ، لانها
قويت بين خالد وبين مدينته التى استقبل فيها الحياة ، فقد
استقر خالد فى وطنه الجديد حتى اصبح من اهله ، واتصلت
المودة بينه وبين اهل المدينة واهل القرى المجاورة ، واخذت
زياراته هو لمدينته تقل وتتباعد ، واخذت زيارات اهلالمدينة
له تقل وتتباعد ايضا . وجعل الشيخ يمر بالمدينة فى طريقه
الى الصعيد فيقيم فيها اليومين او الثلاثة ، ويمر بها فىعودته
الى مدينته فيقيم فيها اليوم والليلة ، لا يلقى من اهلها كيدا ،

بل يلقى منهم تجلة وتكريما ، لانه ضيف خالد ، ولان المامه بالمدينة عيد للفقراء والاغنياء جميعا . وجعل ابو خالد يزور ابنه فى الشتاء كل عام ، فينفق عنده الشهر او الاشـــهر كريما موفورا ناعم البال . وجعل الحاج مسعود يزور ابنته مرتين فى العام لا يقيم فى كل مرة الا الاسبوع يحملونه عليه حملا ، ثم يعود الى داره وشيخه وماله . واطردت امور القوم على هذا النحو ، والايام تمضى والايام تجىء ، والصبية يكبرون ، والكهول يشيخون ، والشيوخ يسعون الى الهرم او يسعى اليهم الهرم . ومن أولئك وهؤلاء من يدركه الموت فى ابانه او يختطفه قبل أوانه ليكون البكاء والحزن ثم يكون العزاء والسلوة . فقد ماتت زبيدة ولما تتقدم بها السن ، وتركت لزوجها ابنيها سالما وعليا ، فحزن سليم وبكى ، ثم تعزى سليم وســلا ، واتخذ له زوجا ثانية وثالثة ، وكاد يسلك طريق عمه الشيخ لولا ان الحوادث ادبته فاحسنت تأديبه ، ولولا انه كان يلقى من زوجيه نكرا أى نكر . ولو استطاع لطلق احداهما . ولكنه كان يكره الطلاق ، ويشفق على زوجيه ان يصيب احداهمـــا المكروه ان تحولت عن داره . فكانت عشرته لهمـــا محنة ، ويحتسب ما كان يلقى منهما عند الله . ويقول لصديقه واخيه خالد : كل امرىء يجاهد كما يستطيع : شيخك يجاهد بالحج فى كل عام ، فيكسب منه مالا وثوابا ان اراد الله ان يثيبه على مثل هذا الحج . وانت تجاهد فى تربية ابنائك وتعليمهم ، تتكلف فى ذلك مالا تطيق ، وتسلك بهم طريقا لم تسلكها انت ، لان اباك لم يدفعك اليها ، ولانه لم يفكر فى ان يجعلك خيرا منه كما تفكر انت فى ان يكون بنوك احسن منك حالا . وانا اجاهد فى احتمال الشر ولقاء الضر من امرأتى ، تسوءاننى فى كل يوم وأسوءهما من حين الى حين ، وتلقياننى بالنكر من القول والشر من العمل ، فأصبر على ذلك ما وسعنى الصبر ، حتى اذا لم

اطق صبرا عمدت الى العصا فشفيت بها نفسى من جسم هذه او جسم تلك ، وقد يبلغ الغضب بى اقصاه ، فأقرنهما فى حبل واحد ، وما ازال اعمل فيهما السوط اريحه من هذه لاتعبه مع تلك حتى تتوبا وتثوبا وتعتنقا والعذاب ينصب عليهما انصبابا فاذا رفعت عنهما السوط واطلقتهما من الحبل لم تهدآ ، الا ريثما تستأنفان ما كان بينهما من الشر ، فتعود الدار جحيما ، وأذوق أنا فيها العذاب الاليم .

قلت لك : كل امرىء يجاهد كما يستطيع . ولست اشك فى أن حظى من رضوان الله لن يكون اقل من حظك ، لانى احتمل مثل ما تحتمل من الالم ، بل اكثر مما تحتمل من الالم ، واحمل نفسى على مثل ما تحمل نفسك عليه من الجهاد ، بل على اكثر مما تحمل نفسك عليه من الجهاد . وكان خالد يسمع هـذا الحديث فيبتسم له ، ويظهر اقراره ، ثم يعود به على امـرأته فيضحكان من بعضه ضحكا كثيرا ، وينكران بعضه الاخر انكارا شديدا . والشباب والصبية من ابنائهما يسمعون من ذلك ما يسمعون ، فيضحكون ويقلدون ، ويعبثون اذا خلوا الى انفسهم او الى امهم ، بأبيهم حينا ، وبعمهم حينا ، وبجدهم الشيخ حينا ، وامهم تسمع فتظهر الغضب وتكتم الرضا ، وربما قصت من ذلك على زوجها اطرافا فضحك له وارتاح اليه ، وربما استخفى زوجها فى بعض الحجرات ليتسمع على بنيه وهم يعبثـــون بالاسرة ويقلدون شيوخها وكهولها . يقلدونهم فى اللهجة ، ويقلدونهم فى الصوت ، ويقلدونهم فى حركات الوجه واليدين ، وقد يقلدون فى طرق التفكير ايضا . وكان الاختلاف بين خالد وسليم قد اشتد وظهرت آثاره واضحة كل الوضوح على مر الايام وتتابع السنين . فأما خالد فقد أقام فى مدينته تلك بين جماعة من الموظفين يختلفون فى الطبقة والثروة والثقافة والذوق وكان خالد طموحا ، ولم تكن امرأته اقل منه طموحا الى الرقى ،

فكان خالد يحرص على أن تكون داره كدار كبار الموظفين ، حسنة النظام ، جميلة التنسيق ، نفيسة الانية والاداة . وكانت امرأته تعينه على ذلك احسن معونة ، وتدبر له ذلك احسن تدبير . ولم يكن خالد يطمئن حتى يدعو الى داره كبار الموظفين واهل الثراء . فاذا رآهم يطعمون وينعمون ، ولا ينكرون من امر الدار شيئا امتلأت نفسه غرورا وفخرا ، وعاد على امرأته بذلك يمنحها أخلص الحب ، ويثنى عليها اجمل الثناء .

وأما سليم فأقام فى مدينته الاولى لم يبرحها ، وعلى عمله الاول لم يغيره ، وعلى عاداته القديمة لم يبدل منها شيئا . فكان كل شىء يتجدد من حوله وهو مقيم على قدمه . يكره التطور وينفر من التجديد ، ولم يكن له حظ من طموح ولا امل فى رقى رضى بما قسم الله له ، ورأى انه ابعد آماده واخر غاياته ، فاطمأن الى نهاره وليله ، والى ما يلقى فى نهاره وليله من حوادث الحياة ، وشغل بما كان يلقى من زوجيه من شر وضر . وكان اذا ضاق بالحياة او ضاقت الحياة به فى مدينته عمد الى صديقه واخيه يزوره ، يقضى عنده الايام ، وقد يقضى عنده الاسابيع ، يجد فى ذلك السعادة والراحة والرضا ، وتجد الاسرة فى مقامه عندها سعادة وراحة ورضا ايضا . فقد كان كثير العبث بأخيه وأبناء اخيه ، يتندر على هذا الترف الذى يتكلفونه ، ويسخر من هذه المكانة التى يرفعون يرى كل شىء عندهم تكلفا ، ويسخر من هذه المكانة التى يرفعون اليها انفسهم وهم ابناء ذلك الشيخ الذى انفق حياته فى تجارة انتهت الى كساد ، وفى صلاح كاد ينتهى الى فساد . يجلس الى مائدتهم تلك المرتفعة قد صفت حولها الكراسى ، فلا يملك نفسه ان يغرق فى الضحك ، وان يذكر خالدا بأيامه تلك القريبة وأيام ابيه حين كانوا يجلسون الى طعامهم متربعين على الارض ، يغمسون ايديهم فى صحافهم الى الارساغ ، وقد يغمسونها الى المرافق حين تقدم لهم صحاف الفت والكشك فى بيوتهم اوفى

اعقاب الذكر . وكانت الاسرة تسمع هذا منه فتضحك له ضحكا كثيرا ، ربما صرف الصبية والشباب عن طعامهم ، وربما اشرق بعضهم بشرابه . وكانت « منى » تسمع له فتضحك اول الامر ، فاذا أكثر سليم همت ان تظهر غيظها ، ولكن سليما يضطرها الى الضحك حين ينتقل من عمه على الى ابيها الحاج مسعود ، ذلك الذى اتاح الله له تجارة رابحة وصلاحا متصلا ، ولكنه ما زال احب الطعام اليه الثريد والكشك يغمس فيه يده الى مرفقه ، فلا تفخرى يا سيدتى ، فلم يدلك الترك ولا انت بنت المدير . هنالك لا تملك الاسرة نفسها من الضحك والاغراق فيه . وكان سليم اسرعهم الى الضحك وابطأهم فى الرجوع الى الجد ، لا يسخر من الاسرة وحدها ، وانما يسخر من نفسه قبل ان يسخر من اى انسان اخر . وكان اشد الاشياء اثارة للغيظ فى نفسه ان يرى الاسرة تعاف الماء الكدر وتحرص على ان تروقه فى الزير وتقطره فى هذه الانية تضعها تحت الازيار وتضع فوقها المصفاة . كان يرى ذلك فيغتاظ ويهتاج ، ويلتفت الى اخيه والى ابناء أخيه وهو يصيح فى صوته المرتفع المضحك :

آه يا أولاد الكلب . من أين جاءكم هذا العز ؟ انكم لتحرمون انفسكم خيرا كثيرا . انكم حين تشربون هذا الماء المصفى اشبه الناس بالذين يشربون اللبن بعد ان استخرج منه الزبد . ثم يسرع الى الكوز فيغمسه فى الزير ويعب فيه عبا شديدا ، ويقول : هكذا رأينا آباءنا يشربون ، لانهم لم يكونوا من الترك ولا من الارنؤوط .

ولم يكن هذا كل الاختلاف بين الاخوين الصديقين ، وانما كان بينهما اختلاف اخر أبعد من هذا فى حياتهما وصلاتهما اثرا . فقد كان خالد يحرص على أن يعلم بنيه كما يعلم كبار الموظفين أبناءهم ، لا يكتفى بأن يحفظوا القرآن ويحسنوا شيئا من الكتابة والحساب ، وانما يحرص على أن يرسلهم الى المدارس ليلووا

ألسنتهم بهذه الرطانة الاجنبية ، وليلبسوا هـــذه الازياء الاجنبية ، ولتطلق المدارس عليهم هذه الاسماء التركية :فهمى وشوقى ، وصبحى ، وليصبحوا اذا شبوا موظفين كبارا ·واما سليم فكان يضيق بذلك اشد الضيق ، ويرى ان أباه لم يرسله الى المدرسة ، وأن جده لم يرسل اباه الى المدرسة ، وانه قد فر بنيه من المدرسة فرارا ، ويرى ان هذه المدارس لم تنشأ للفلاحين ، وانما انشئت لابناء الذوات ، وان أبناء الفلاحين اذا ذهبوا اليها فسدت اخلاقهم وتقطعت الصلات بينهم وبين آبائهم وأمهاتهم ، وطمعوا فيما لا يقدرون عليه ، وانتهوا الى فساد لا فساد بعده · وكان يقول لخالد : ألا تنظر لبنيك فى هذه الازياء الضيقة التى لم تخلق لهم ، فهم اذا اتخذوها اشبه شىء بالعفاريت ! الا تسمع لهم حين يتراطنون فيما بينهم بما لا تفهم ! ما يدريك ! لعلهم يشتمونك وانت لاتعى · وكان هو قد ارسل ابنه سالما الى حذاء يتعلم عنده صناعة الاحذية ، وأرسل ابنه عليا الى خياط يتعلم عنده صناعة الازياء الاوربية وكان يقول متضاحكا : قد كبرت يا خالد وكبر ابنـــاؤك ، وأصبحتم لنا سادة واصبحنا لكم خدما · سيصنع ابنائى لابنائك ما يحتاجون اليه من الاحذية والثياب · ولكن احذر ان يدفعك ذلك الى البطر ، وان تبخل بجلنار على سالم لانه حذاء، وان تبخل بأولى بناتك من « منى » على على لانه خياط ، ثم يغرق فى الضحك وتغرق الاسرة فى الضحك معه ايضا ·

وكذلك رثت الاسباب قليلا قليلا بين الاسرة وبين المدينة الاولى ، حتى اصبح التزاور بين افراد الاسرة فى المدينتين طرفة من الطرف ، تشتد فيها الرغبة احيـــانا وتقصر الامال عن

تحقيقها · وكذلك استقلت اسرة خالد قليلا قليـــلا ، حتى اصبحت وكأن لم يكن بينها وبين اصولها فى المدينة الاولى عهد، وحتى شغلت بأمورها وخطوبها عن امور الاخرين وما يعرض لهم من خطوب .

فلندع هؤلاء الاخرين لحوادث الايام ونوب الدهر تصنع بهم ما تصنع بالناس جميعا ، ولنقم مع هذه الاسرة الناشئة التى اخذت تنمو فى سرعة ، فقد نجد فى الاقامة معها ما يكفى لاتمام هذا الحديث .

مراسلات نادى القصة يكون
القصة ميدان الحرية رقم ١٥

- ٢٣ -

لبثت « سميحة » في دار أبيها عامين لم تلق فيهما الا خيرا ولم تذق فيهما الا هناءة ، رغد كثير لم تألفه فى عزلتها تلك بين أمها وأختيها ونسيم من جهة ، وجدها القاسى الجافى الغليظ من جهة أخرى ، وفى حياتها تلك التى لم تكن ضيقة كل الضيق ولكن لم تكن واسعة كل السعة ، وانما كانت شيئا بين ذلك، فيه الرخاء أحيانا وفيه الشدة والعسر أحيانا أخرى . فى تلك الحياة لم تعرف سميحة حنان الاب ولا حنو الام . وانى لها حنان الاب ولم يكن أبوها يراها الا بين حين وحين ، ولم يكن يراها الا الوقت القصير يبسم لها ويلقى اليها كلمات حلوة لعلها لم تكن تخلو من تكلف ثم ينصرف عنها وقد ألقى فى يدها نصف القرش أو المليمات ، وأنى حنو أمها وقد كانت

مريضة أكثر الوقت ، لا تحفل بابنتيها ،وربما نسيت فى بعض الاوقات أن لها ابنتين ! وفى تلك الحياة لم تعرف سميحة فرحا ولا مرحا ولا ابتهاجا . وأنى لها ذلك وقد كانت مقصورة أو كالمقصورة على عشرة أختها جلنار ، وبين أمها البائسة وخادمها السوداء ، لا تكاد تختلط بصبيان الدار من أعمامها وعماتها الصغار ، فقد كان يحال بينها وبين ذلك ، يرى أبوها ان فى مخالطتها لهم شرا عليها ، ويرى جدها أن فى مخالطتها لهم شرا عليهم . فأما فى حياتها الجديدة فقد تغير كل شىء : أمها بائسة سقيمة من غير شك ، ولكنها لا تكاد ترى أمها فضلا عن أن تطيل المقام معها . وخادمها السوداء كعهدها تلقاها بابتسامها العابس ، ولكن فى الدار أشخاصا آخرين وكائنات أخرى وأشياء أخرى لم تكن تألفها من قبل ، فالدار فسيحة مترامية الاطراف كثيرة الحجرات واسعة الافنية ، وفيها اخوتها وقد بلغوا الان خمسة ، ويوشكون بعد قليل ان يبلغوا ستة ، منهم من شب حتى لم يكد يبقى بينها وبينه فرق فى السن والقد ، ومنهم من لا يزال صبيا فيه كثير من المرح والفرح ، وفيه كثير من الحركة والنشاط ، ومنهم من لايزال طفلا يحبو أو يدرج وهو يقدم لاخوته ضروبا من اللذة وفنونا من المتعة ، يوشك أن يكون لهم لعبة لولا أنهم لا يستطيعون أن يعنفوا به أو يقسوا عليه ، وفى الدار علتها التى كانت تدعوها خالتها ، وهى «منى» هذه ذات الوجه الطلق ، والثغر الباسم ، والشباب الغض ، والقلب الذى يفيض رحمة وحنانا . وفى الدار خدم رجال ونساء ، منهم من يعنى بامور الدار تنظيفا وتنظيما وتنسيقا واعدادا للطعام والمائدة ، ومنهم من يعنى بهذه الحيوانات التى كانت تقيم مع أهل الدار فى أماكن خصصت لها والتى كانت تمثل ما ألف فى المدن والقرى من هذه الحيوانات التى تعاشر الناس وتمنحهم خفض الحياة وليتها . ففى الدار البقر

والجاموس ، وفيها الحمر والخيل ، وفيها الدواجن ذوات الريش على اختلافها . وقد كان الحاج مسعود قد قضى فيما بينه وبين نفسه ألا يولد لابنته مولود الا أهدى اليه شيئا من هذا الحيوان فلهذا جاموسة ، ولهذا بقرة ، ولهذا فرسا . وكانت الاسرة تتخذ الدواجن وتستكثر منها ، فكانت دار خالد خليطا غريبا من دور أهل المدن ودور أهل الريف . وكان هذا كله يملأ الدار حياة صاخبة كثيرة الضجيج والعجيج ، كثيرة الحركة والنشاط ، مختلفة أنواع العمل . وكان أبناء الدار يجدون في هذا كله اللذة كل اللذة والحياة كل الحياة . ولو تركوا وما يشاءون لما ذهبوا الى الكتاب ولا الى المدرسة ، ولآثروا أن ينفقوا أوقاتهم يشهدون هذه الحركات الكثيرة المتنوعة ، يلوذ بعضهم بالمطبخ حيث يهيأ الطعام وحيث لا يعدم من تلقى اليه طرفة من طرف هذا الذى تهيئه . ويلوذ بعضهم بقاعة التنور حيث يهيأ الخبز وتتخذ ألوان الكعك والفطير . ويقف بعضهم عند هذه التى تحلب البقرة أو الجاموسة ، أو عند هذه التى تمخض اللبن ، أو عند هذه التى تدعو الدجاج لتلقى اليهن الحب . ولكن خالدا كان قاسيا على بنيه يأخذهم بالحزم فى أمر الكتاب والمدرسة ولم تكن زوجه أقل منه شدة ولا حزما ، فكانوا يذهبون كارهين الى كتابهم ومدرستهم ، ثم يعودون فرحين الى دارهم . وكانت سميحة وأختها بين هذا كله سعيدتين راضيتين قد أنسيتا ما أحستا من ألم أو وجدتا من شظف فى حياتهما الاولى . وما كان أحرص سميحة على أن تتصل هذه الحياة الناعمة الفرحة ، لولا أن أباها كان بعيد الصوت فى مدينتيه الاولى والثانية ، متهما بأن له حظا من يسار ، متهما أيضا بأن حياته حديثة ، فيها كثير من حضارة وترف وتأنق ، ولولا أن سميحة نفسها كانت على حظ من جمال يتحدث الناس به فى المدينتين ، فلم تكد تبلغ الرابعة

عشرة حتى خطبها الخاطبون ، ولم تكد تبلغ الخامسة عشرة حتى عادت الى مدينتها الاولى لتزف فيها الى زوج له شيء من ثراء ومكانة ، ولكن له بنين وبنات تركتهم له امرأته الاولى . فاستأنفت سميحة حياة ثالثة لسنا فى حاجة الى أن نعرض لها ولا أن نقص أنباءها ، فلم تكن هذه الحياة الثالثة الا حزنا متصلا وعذابا مقيما ، أبناء لا يلمون بالحياة الا ليسرعوا الى الموت أو ليسرع اليهم الموت ، وثروة تضخم ويطمع فيها أبناء الضرة ، وزوج تتقدم به السن فيدركه الضعف قليلا قليلا ، ويعظم حظه من الاثرة شيئا فشيئا ، ويزداد سخطه على هذه الزوج الجميلة ذات الحسب والنسب ، ولكنها على ذلك ميلاد مفقاد ، كأن بينها وبين الموت عهدا أن تلد له وان يسرع الى بنيها فيختطفهم اختطافا . وقد عرفت سميحة الدموع ولما تتم السابعة عشرة من عمرها ، وقد نيفت سميحة على السبعين ولم يعرف أنها أنفقت يوما لم تسفح فيه عبرة ولم تذرف فيه دمعا انما كانت حياتها بكاء متصلا : بكاء يأتى من الثكل ، وبكاء يأتى من قسوة الزوج ، وبكاء يأتى بعد هذا كله من سيرة من سلم لها من البنين والبنات ومما كان يختلف على حياتهم من ظروف وخطوب .

فأما جلنار فقد ظلت الفتاة الوحيدة فى هذه الاسرة بين اخوتها الشباب والصبية والاطفال ، وبين أمها السقيمة ، وعلتها الكريمة ، وأبيها الرحيم . وكادت تجد فى حياتها النعمة كل النعمة ، ولكنها لم تكن تجد فى حياتها الرضا كل الرضا ، فقد كانت تعرف قبح وجهها وترى دمامة صورتها ، فتكره ذلك وتضيق به ، ولم يكن الشباب من اخوتها يتحرجون من التندر عليها والسخر منها ، يجدون بذلك حينا ويمزحون به أحيانا ، ويؤذونها به على كل حال . وقد كانت فتاة الاسرة

وكان فيها جلد وقوة ونشاط وحب للعمل وسبق اليه ، فما أسرع ما ألفت الاسرة منها ذلك ورأته لها طبيعة ، ثم رأته عليها حقا ، ثم رأت تقصيرها فيه ذنبا ، فاندفعت الفتاة الى العمل ثم دفعت اليه . وأى بأس فى ذلك وقد كان عملا كريما شريفا ! . وأى حرج فى أن تعنى الفتاة باخوتها الصغار تحملهم وتنشئهم وتعللهم ، وقد شغلت أمهم عنهم بأمور البيت وبمن كان يولد لها من البنين كل عامين أو فى أقل من عامين ! فهؤلاء الصبية أخوتها ، وهى أرأف بهم واعطف عليهم من الخدم . وأى حرج فى أن تعمل الفتاة مع العاملات فى اعداد الطعام وتهيئة الخبز وغسل الثياب !ففى ذلك كله تعليم لها أى تعليم، وهو يعدها أحسن اعداد لتكون ربة البيت يوم يصبح لها بيت . واذا لم تكن الفتاة جميلة رائعة الجمال ولا حسنة بارعة الحسن ، فلا أقل من أن تكون صناعاتحسن الاشراف على أمور البيت والنهوض بأعبائه المختلفة . فليس من المحقق أنهاستجد لنفسها دارا كدار أبيها ، فيها الرخاء والثروة ، وفيها الخدم من الرجال والنساء ومن الممكن بل من المرجح أن بيتهاسيكون منواضعا متضائلا مقترا عليه فى النفقة ، فستزف يوما ما الى سالم . وهل سالم الا حذاء يعيش من عمل يده وعرق جبينه؟! فيجب أن تكون زوجه ماهرة فى تدبير أمرها ، والعناية ببيتها والقيام على تربية من سيتاح لها من الولد . وقد ألقى فىروع الفتاة قبل أن تجاوز الصبا وتبلغ الشباب أنها خطب سالمالان وزوجه غدا ، قد اتفق على ذلك الابوان خالد وسليم ، واتفقت على ذلك نفيسة وزبيدة ، وألحت زبيدة فى أثناء مرضها الذى ماتت فيه ، فليس عنه منصرف وليس الى تبديله من سبيل . ومن أين يأتى التبديل وقد أصبح هذا أمرا مقررا تراهالاسرتان كما تريان مقدم النهار ومقدم الليل ! فكانت الفتاة تتحدث الى نفسها بهذه الخطبة الواقعة وبهذا الزواج المنتظر .وكانت

تفكر كثيرا فى هذا الشاب الفتى القوى الجميل المرح ، الذى يحسن الدعابة ويؤثر المزاح على كل شىء ، والذى كان ينتهز كل فرصة ليزور عمه وأبناء عمه فى مدينتهم هذه ، فيطيل الزيارة ، ويقيم بينهم فيطيل المقام ، وربما أسرف فى ذلك حتى يدعوه أبوه بالكتاب يتبع الكتاب ، وفيه اللوم والتأنيب وفيه التوبيخ والتقريع . وكانت الفتاة البائسة مستيقنة فيما بينها وبين نفسها بأنها الغرض من هذه الزيارات الكثيرة ومن هذه الاقامة المتصلة ، فقد كانت تحب الفتى حبا شديدا وتؤثره على كل انسان وعلى كل شىء . لم تكن تتحدث بذلك ، فحياء الفتيات وآداب الريف تمنع من مثل هذا الحديث ، ولكنها كانت تديره فى رأسها مصبحة ممسية ، وتستحضره فىقلبها أثناء يقظة النهار ونوم الليل . وكان ذلك يعينها على عملها المتصل المرهق الذى جعل يزداد اتصالا وارهاقا كلما تعقدت أمور الدار . وكانت أمور الدار تتعقد فى سرعة مدهشة ،فقد كثر الابناء وكثرت حاجاتهم ، وعظم أمر الاسرة وكثر الزائرون لها والملمون بها من الضيف . وجعلت « منى » تخفف شيئا فشيئا من أثقال أعبائها على الفتاة . والفتاة ماضية فى العمل جادة فيه مخلصة له ، تستعين عليه بهذا الحب الدفين ، وبهذه الآمال العراض التى كانت تزين لها كل شىء فى الحياة الا وجهها وخلقها ، فلم يكن الى تزيينهما سبيل .

وكان حب الفتاة على شدة كتمانها اياه وحفظها له يظهر فجاءة اذا ذكر اسم سالم أو حضر شخص سالم على غير انتظار هنالك تبرق عيناها ، ويضطرب على وجهها المظلم الجهم نور ضئيل لا يلبث أن ينمحى كأنه هذه الاضواء الطارئة الضئيلة التى تنبسط على قطعة من ظلمة الليل لحظة ثم تزول كأنها لم تكن . وكان هذا الحب الكمين يظهر ملحوظا حين يقيم سالم فى الاسرة قليلا أو كثيرا ، فقد كانت الفتاة تلحظه لحظات

مختلسة لها معناها ، وكانت تتجنب الحديث اليه ، وتتجنبه أن تدعو حديثه اليها ، ولكنها كانت تلتهم حديثه الى غيرها من اخوتها التهاما ، تتسمع عليه اذا تحدث الى رفاقه من بعيد ، ثم كانت تؤثره بكثير من الطيبات · وكان لها الى ذلك مسالك تملأ القلوب رحمة وحنانا ، فلم تكن تختصه بشيء دون غيره من اخوتها ، وانما كان عطفها على اخوتها وايثارها اياهم بطيبات المطبخ والتنور ، ودعوتها اياهم الى ما يلهى ويسر ، كان هذا كله أكثر حين يزور سالم الاسرة ويقيم فيها · وكانت الاسرة تلحظ ذلك كله فتتمازح به وتداعب الفتاة فيه · وكانت الفتاة تسمع المزاح والدعابة فلا تجيب الا برفع الكتفين ، وضحك فيه استهزاء بما يقال ، واعتراف فى الوقت نفســـه بأنه صحيح ·

ولم تلق جلنار من خالتها شيئا يسوءها فى السر أو فى الجهر ، وانما مضت أمورها على ما تحب وعلى ما تحب الاسرة· ولم تكن الفتاة تعنى بأمها عناية كثيرة ولا تلتفت اليها التفاتا خاصا ، بل ربما شاركت اخوتها فى مداعبة هذا الشيخ الذى لم يكن يعقل كثيرا مما يقال له أو يجرى حوله ، فاذا عقل شيئا وهم أن يتكلم فيه نطق بما يملأ الدار ضحكا ، وضحك الشيخ نفسه مع الضاحكين · فقد ألفت نفيسة أن تعيش على هامش الاسرة لا تشارك فى جدها وهزلها الا أيسر المشاركة ، فان دخلت فى شيء من أمر الاسرة أخطأت موضع العمل أو موضع القول ، فأضحكت منها وضحكت من نفسها ، وعـــادت الى عزلتها هادئة مطمئنة ، لا يعرف اساخطة هى أم راضية ، وأكبر الظن أنها لم تكن ساخطة ولا راضية ، وانما كانت تحيا حياة سلبية من كل وجه · تعيش نهارها لا تعمل شـيئا ولا تقول شيئا ، انما تدخن ، وتشرب القهوة ، وتنظر الى ما فى الدار من حركة ، وتسمع الى ما يدور حولها من حديث ، تعقل من ذلك اقله وتغفل عن اكثره ، وتأوى مع الليل الى مضجعها

لا يدرى أحد أتنام فيه أم لا تنام ، ولكنها كانت تأوى اليه فى ساعة معينة ، وتثب منه فى ساعة معينة · فأما ما يكون بين هاتين الساعتين فعلمه عند الله · وأكبر الظن أن نفيسة لم تكن تعلم منه الا قليلا · وقد كانت الانباء تأتى بأن سميحة ابنتها رزقت غلاما أو صبية ، وبأن سميحة ابنتها فقدت هذا الصبى من بنيها أو هذه الصبية من بناتها ، وكان هذا كله يقال أمامها فتسمع وكأنها لا تسمع ، ثم لا يظهر عليها فرح ولا حـزن ، انما هى الحياة الآلية التى لا تترك لصاحبها ارادة ولا تفكيرا انما كانت « منى » هى التى تفرح وتحزن لما يصيب سميحة من خير او شر ، وهى التى تسافر لتجامل سميحة او تواسيها ، وربما عادت بسميحا الى دار الاسرة لتجد فيها عزاء عما أصابها من خطب ، أو ســـلوا عما نزل بها من هم · فاذا دخلت « سميحة » على أمها تلقتها هذه باسمة وقبلتها واجمة ، ثم لم تزد على هذا الوجوم الباسم شيئا ·

- ٢٤ -

على أن الامور قد اخذت تتغير قليلا قليلا فى الاسرة ، وبدأ التغير فى قلب « منى » ذات يوم او ذات عام ، فهذه اشياء لا يمكن ان تؤرخ باليوم ولا بالشهر . فقد كانت « منى » تنتظر المولود السابع ، وتتمنى ان يكون هذا المولود طفلة ، تتحدث بذلك الى زوجها فيرفع كتفيه ويهز رأسه ، لانه لم يكن يحفل بأن تولد لها صبية او يولد له صبى . ولعله كان يؤثر فى اعماق نفسه ان يكون ولده جميعا ذكورا . وكانت «منى» تضيق بذلك ، وربما اشتدت على زوجها فى اللوم حين ترى منه هذا الاعراض عن البنات او قلة الاكتراث للبنات . وربما قالت له : وما يعنيك من ذلك ولك ابنتان سميحة وجلنار ! فأنت رجل مجدود ، وقد رزقت البنات والبنين جميعا ، فما عليك ان أحرم انا هذه النعمة ! وكان خالد يضحك لهذا الحديث ، ولكن « منى » كانت تغتاظ لهذا الضحك ، وكانت

تقول : ان الصبى لا يكاد يدرج حتى يرسل الى الكتاب ثم الى المدرسة ثم يسعى فى حياته ، فأمه تحرم لذة الاتصال الدائم به قبل ان يتجاوز السادسة من عمره ، ينصرف عنها الى درسه ولعبه ، ثم الى عمله وامرأته وبنيه اذا تزوج . فأما الصبية فانها لا تبرح البيت الى كتاب او مدرسة او عمل ، فهى معاشرة لامها دائما ، هى متعتها صبية وصديقتها شابة ، واختها اذا تقدمت بها السن حتى لو تزوجت . وكان خالد يسخر منها فيقول : نعم ! اخت لامها حتى لو تزوجت ، كما انك الان اخت لامك بعد ان تزوجت ورزقت البنين ! . فتجيبه « منى » ثائرة: وهل شغلنى عن امى الا أنت وبنوك ،فيقول خالدوهو يضحك : فستشغل ابنتك عنك بزوجها وبنيها كما تشغلين انت الان عن أمك . ولكن الله حقق لمنى رجاءها واستجاب دعاءها فرزقها صبية ، ثم تتابع البنات فى الدار حتى بلغن اربعا ، نشأتهن جميعا جلنار . ومنذ اصبح لمنى بنات ومنذ اخذ بناتها يسرعن الى النمو اخذت نظرتها الى جلنار تتحول قليلا قليلا ، وكأن ما أودع الله قلبها من الحنان للبنات لم يكن يسع الا بناتها هى ، فجعلت نظرتها الى الفتاة تقسو ، وجعل صوتها اذا تحدثت الى الفتاة يجفو ، وجعلت معاملتها للفتاة تغلظ من يوم الى يوم . والفتاة غافلة عن ذلك اول الامر ، ثم محتملة له بعد ذلك ، ثم ضيقة به وصابرة عليه اخر الامر . وسالم يزور المدينة ويعود منها لا يتحدث فى الزواج ولا يشير اليه .وسليم يزور المدينة ويعود منها لا يتحدث فى الزواج ولا يشير اليه . وقد كانت « منى » نفسها تتحدث فى امر هذا الزواج قديما فقد اصبحت الان لا تتحدث فيه ولا تشير اليه ، انما يلمح به الفتيان من شباب الاسرة تلميحا قليلا ضئيلا لا يلبثون ان يكفوا عنه ويخوضوا فى غيره من الجد والمزاح . ثم تنسى الخطبة نسيانا تاما ، ولا يعرض احد لهذا الزواج بلفظ او اشارة . والفتاة ترى وتفكر ، وتألم ، وتصبر ، وتنظر الى وجهها فى المرآة ثم تعكف على نفسها فى صمت حزين . ولعلها أن تخلو

الى نفسها ان وجدت للخلوة وقتا ، فتعدد وتبكى كما تعدد النساء ويبكين ، حتى اذا احست نبأة اسرعت الى بكائهـا فالتهمته التهاما ، والى دموعهـا فشربتها حتى تشرق بها ، ووثبت مقبلة على بعض العمل كأنهـا لم تكن فى بكاء ولا تعديد . وبمقدار ما كانت سيرة « منى » تتغير مع جلنار كان عطف جلنار على أمها يشتد ويزداد ، فقد اخذت تعنى بها عناية خاصة فى اللفظ واللحظ والارشاد والمعاملة . وكانت فى الفتاة جفوة هى خير مظهر من مظاهر الحب والحنـان ، فكانت اذا جفت على انسان فى قول او عمل دل ذلك على انها تؤثره بالود الخالص والحب العميق . وقد اخذ حظ امها يزداد من صوتها الغليظ والفاظها الجافية ونظراتها الحادة وحركاتها العنيفة ، فكانت تقدم اليها القهوة اذا اصبحت وكأنما تنهرها نهرا شديدا ، وكانت تتحدث الى امها فى صوتها المرتفع الحاد. فاذا ظلت امها ذاهلة كعهدها اندفعت اليها عنيفة بها فهـزتها هزا شديدا .وهى تقول : انى اكلمك الا تسمعين !واذا سمعت فهلا تجيبين ! وربما اختطفت من امها اثناء هذا العنف قبلة سريعة خفيفة لا تكاد تلحظ . وقد صبرت نفيسة على هـذا العنف ، لم تحسه اول الامر ولم تلتفت اليه ، ولكنه اتصـل واتصل ، وتكرر اثناء النهار ، وتكرر فى اول الليل . واخذت الاسرة تلاحظ ان فى نفس الفتاة شيئا او انها تريد من امهـا شيئا . ولكن قلوب الشباب قاسيات وقلوب الامهات اشـد قسوة اذا شغلن بولدهن ، فلم يحفل احد من الاسرة بهـذا العنف الذى كانت تهديه الفتاة الى امها . وما يعنيهم من ذلك! فتاة حمقاء ، وأم مجنونة . فليفرغ الشباب لامرهم ، ولتفرغ الام لبنيها ولبناتها خاصة .

وفى ذات يوم اقبلت الفتاة ضجرة الى امها تتحدث اليهـا عنيفة بها فى الحديث . فلما ابطأت الام فى الجواب هجمت الفتاة عليها كأنها الغول تريد أن تلتهم فريستها ، فارتاعت الام شيئا ، وهبت من مجلسها مذعورة . واسرعت اليها الفتاة فأخذتها بين ذراعيها دون ان تجد منها امتناعا او اباء .وتنظر

« منى » ومن حولها من بنيها ومن نساء الدار فاذا المرأتان قد اعتنقتا ، واذا دموع غزار تمتزج وتجرى على وجهين قبيحين ملتصقين . فأما الشباب فيوشكون ان يضحكوا لولا بقية من حياء وخوف من امهم . واما « منى » فلا تملك دموعها ان تنهل، واذا هى تبكى صامتة ، ثم تنهض متثاقلة وتسعى بطيئة حتى تبلغ هاتين المرأتين ، فتضع على رأس كل واحدة منهما قبلة مبللة بالدموع. ومنذ ذلك اليوم عادالى نفيسة شىءمن رشدها، فعرفت انها أم ، وان لها ابنة بجوارها تدعى جلنار ، وابنة اخرى بعيدة عنها تدعى سميحة . عاد اليها شىء من رشدها ، ففارقها الذهول ،ولكن لم يفارقها بؤس النفس هذا الذى يضطر صاحبه الى الاذعان ، ويلجئه الى زاوية ضئيلة من زوايا الحياة يلزمها ولا يبرحها ، يرى انها خلقت له وانه خلق لها ، وان القضاء قد جعلها له قبرا حيا حتى يأتى اليوم الذى ينقل فيه من هذا القبر الذى يدفن فيه الاحياء الى ذلك القبر الذى يدفن فيه الموتى .

أفاقت نفيسة من ذهولها وعرفت بعض امرها ، ولكنهاظلت ضئيلة ذليلة ، تتحرك فكأنها الشبح ، وتتكلم فكأنها الصدى، ولكن أى شبح وأى صدى ! شبح هو الحزن بعينه ، وصـدى هو الى الغناء النادب اقرب منه الى الصوت المألوف . ولـكن منذ ذلك الوقت عاد الى جلنار شىء من ثقة وحظ من امل ، لا لأنها انتظرت ان تزف الى سالم ، فقد جعلت تيأس من هذا الزواج يأسا يزداد من يوم الى يوم ، ولا لانها كانت تستطيع أن تلجأ الى امها فتبثها ما تجد من حزن ، ولكن لانها كانت تنظر الى امها فلا تقابل نظرتها تلك النظرات الغافلة الذاهلة الشاردة وانما كانت تقابل نظرات تفهم عنها ، وتتحدث الى قلبها حديثا تفهمه دون أن يدور لسانها فى فمها بالكلام القليل او الكثير . وكان هذا الحظ الضئيل من الحب الصامت يغنى هذه الفتاة

وينقع ظمأها الى الحنان ، بعد ان فقدت حنان خالتها وكادت تفقد حنان اخوتها الذين جعلت قلوبهم تقسو ، وأكبـــادهم تغلظ ، ونفوسهم تجفو ، وذاكرتهم تنسى ما قدمت اليهم اختهم من معروف ·

ولم تكن جلنار فى حاجة الى ان تبحث عن العلة التى اجلت زفافها الى سالم ثم الغت امر الزواج الغاء ، فقد كان يكفى أن ترى وجه امها وان تنظر الى وجهها فى المرآة فيغنيها ذلك عن كل سؤال ·

والواقع أن أمر سالم لم يكن يسيرا ولا سمحا ، وانما كان عسيرا لا يخلو من تعقيد · لقد نشأ هذا الفتى ساخطا اشد السخط ، يرى انه تعس سيىء الحظ ، لم يكد يخرج من صباه حتى فقد امه وحتى ذاق مرارة اليتم وعرف قسوة العلات · ثم لم يكد يعقل حتى رأى نفسه يختلف الى حذاء يعمل عنده فى صناعة الاحذية ، وكان يرى ابناء عمه يختلفون الى الكتاب ثم الى المدارس يتخذون هذه الازياء التى لا تخلو من ظرف ، وعليهم هذه الشارة التى لاتخلو من جمال ، وفيهم شيء من انفة وكبرياء يغريهم بهما ما كانوا يحسون فى انفسهم من امتياز · فأنكر الفتى نفسه فى منزله بين هاتين العلتين ، وانكر نفسه عند معلمه ذلك الحذاء ، صانعا للاحذية ممارسا اقدام الرجال ، وأقسم فيما بينه وبين نفسه ليهجرن دار ابيه متى استطاع ، وليهجرن عمل الحذاء متى وجد الى ذلك سبيلا ، وكان اخوه على يشاركه فى هذا كله : يشاركه فى الضيق بحياة البيت ، وفى الضيق بهذه الصناعة التى يكرهه عليها ابوه اكراها · وكان الفتيان بعد ذلك يختلفان اختلافا شديدا : فلسالم حظ

حسن من ذكاء ، ولعلى حظ عظيم من الغباء والغفلة · ومهما يكن من شيء فقد اتفق الشابان على هذا السخط ، واشتركا فى هذا الضيق ، ورأى كل واحد منهما نفسه بائسا مضطهدا واجتهد كل واحد منهما فى ان يلتمس لنفسه مخرجا من هذا البؤس وهذا الاضطهاد · فأما سالم فقد احسن صناعته ثم انصرف عنها · ولما هم ابوه ان يلومه فى ذلك اجابه الفتى فى حزم قائلا : انك انما علمتنى هذه الصناعة لاعيش واكفيك مؤونتى ، فسأعيش وسأكفيك مؤونتى · ثم اخذ يضطرب فى حياته كما يضطرب الشاب الذكى الذى يحسن القراءة والكتابة ولم يحرم يدا صناعا وعقلا يحسن التصرف فى الامور ، فجعل ينتقل من عمل الى عمل يكسب القليل مرة والكثير مرة اخرى ، ويدفع الى ابيه الجنيه او الجنيهات من حين الى حين · وقد اطرح زى اترابه ، واتخذ زى بنى عمه ، فأصبح افنديا مطربشا · ولكنه كان يشعر دائما بالنقص اذا لقى بنى عمه ، لانه لايرطن كما يرطنون ، ولا يسعى الى الشهادات كما يسعون اليها · وكان يشعر فى الوقت نفسه بالتفوق على بنى عمه لان يده لم تصفر من المال قط ، فكان فى جيبه من الذهب والفضة مالم يكن فى جيوبهم · وكان على ذلك خراجا ولاجا لا يضيق بشيء ولا يعييه شيء ، ولا يعرض له حرج الا خرج منه ولا تلم به مشكلة الا انسل منها كما تنسل الشعرة من العجين · وكان بعد هذا كله طلق الوجه ، باسم الثغر ، فصيح اللســـان ، عذب الدعابة ، منشرح الصدر ، لا يعرف الهم الى قلبه سبيلا · وما دام قد اجترأ على ابيه مرة فترك صناعة الاحذية واستقل بأمره ، فما يمنعه ان يخرج على ابيه مرة اخرى ؟! وقد فعل ، فقال لابيه ذات يوم : لا اسمعك تحدثنى عن جلنار ، فانى لم

اخطبها ولم يخطر لى قط ان اتخذها لى زوجا · قال سليم : ولكنى قد خطبتها لك · قال الفتى : فانى لم أفوضك فى ذلك · قال سليم : وقد خطبتها امك لك · قال الفتى : ولم افوضها كما انى لم افوضك · قال سليم : ولكن امك قد الحت على فى هذا الزواج قبل ان تموت · قال الفتى : ألحت عليك انت ولم تلح على أنا · قال سليم وقد استيأس من ابنه : انت وماتشاء! ولكن لا تجهر بذلك حتى افضى به الى عمك ، وسأجد فى ذلك جهدا وألما · قال الفتى : لن اجهـــر بذلك ولن اسره ، لانى لا احفل به · ولا حاجة الى ان تفضى به الى عمى ، فانى لن اتزوج من جلنار ولا من غيرها · ثم انطلق الفتى وترك اباه مترددا بين السخط والرضا · واكبر الظن انه ارتاح الى خطة ابنه ، فلم يكن يحفل بأن يقضى على ابنه بهذه الفتاة الدميمة، فيكون حظه كحظ عمه خالد حين تزوج امها نفيسة ·

وأما على فلم يقل لابيه شيئا ، ولم يترك صـــناعة الخياط التى اضطر اليها ، ولم يتصرف فى أمره كما تصرف اخوه ، وانما كان يذهب الى معلمه وجه النهار فلا يصنع عنده شيئا · فلما آنس المعلم منه غفلة وكسلا سخره فى قضاء الحاجات البعيدة ولم يعلمه شيئا · وكان الفتى اذا اقبل المساء تنقل بين المساجد وحلقات الذكر ، يصلى هنا ويذكر هناك ، وهو لا يذوق من الذكر ولا من الصلاة شيئا · وكان يلم بدار ابيه فيصيب فيها شيئا من طعام ثم ينصرف الى حياته الفارغة خارج الدار · فاذا تقدم الليل أقبل فاستلقى على فراشه حتى يصبح فيستأنف حياة البطالة والفراغ · كان كلا على ابيه ، كلا على أخيه ، ضحكة لبنى عمه اذا زارهم ، ولم يكن يزورهم الاقليلا ·

وكان فرحا دائما لا يأسى على شىء ، ولا يفكر فى شىء ، ولا يستطيع احد ان يؤذيه بقول او فعل ، لان الاشياء كانت تنزلق على نفسه الملساء دون ان تترك فيها أثرا حسنا او سيئا · وكان سليم محبا لابنيه ضيقا بهما فى وقت واحد ، ولكنه كان يؤثر سالما ، لانه اكبر ابنائه ، ولانه كان كثير النشاط حسن الشارة ، يعود عليه بالدينار او الدينارين من حين الى حين ، فيفرج أزمة أو يعين على حق · ومع ذلك فقد كان يحنو على على حنوا شديدا ، يرى فيه فتى ضعيفا ضيق الحيلة ، ويرى فى الرفق به والعطف عليه والشقاء ببطالته هذه لونا من الجهاد كهذا الجهاد الذى كان يحتمل مشقته بين امرأتيه · وكان مع ذلك مشغولا عن هذين الشابين بعمله واهله وببنين وبنـات ولدوا له ، فمضى فى تربيتهم كما مضى فى تربية سالم وعلى، أسلمهم الى الصناع · وكان يقول لصديقه وأخيه خالد : ماذا تريد ؟ لا ينبغى ان نغالب القدر ولا ان نعاند القضاء ، ولا أن نكون جميعا سادة ممتازين · يجب ان يكون ابنائى همـــلا كأبناء ابيك ، وان تمتاز انت ويمتاز ابناؤك ، فحسب الاسرة ان يمتاز فرع من فروعها · ولكن صدقنى ، انى اراك احمق مغفلا ، تنفق مالك الكثير دون ان تدخر منه شـيئا · أليس غريبا انك لا تملك دارا تقيم فيها ! فدارك هذه ملك للحكومة، وستتخرج منها يوما من الايام ، وما أظن أنك ستأوى بأهلك وبنيك وبناتك الى دار ابيك الخربة المهدمة · فأطعنى وارسل الى جنيها فى كل شهر ادخره لك ، حتى اذا اجتمعت لى عشرون او ثلاثون جنيها اشتريت لك قطعة من الارض ، واتخذت لك فيها دارا · أطعنى وارسل الى جنيها فى كل شهر، واحتجزأنا جنيها فى كل شهر ايضا ، ونشترى قطعة واسعة من الارض

تقيم عليها دارين متجاورتين ، احداهمـــا لك والاخرى لى ·
فسيتفرق ابناؤك فيما ينتظر لهم من عمل ، وسيتفرق ابنائى
ايضا ، وسيعود كل منا الى صاحبه فى الشيخوخة كما كان
كل واحد منا لصاحبه فى الشباب · كان يتحدث اليه فى ذلك
ملحا دائما ، يجد حينا ويمزح حينا · وكان يتحدث اليه فى
امور كثيرة الا شيئا واحدا لم يستطع ان يتحدث فيه لا مصرحا
ولا ملمحا ، وهو هذه الخطبة التى بعد بها العهد ، وهـــذا
الزواج الذى كثر تأجيله ، وهذه الفتاة التى طال انتظارها ولم
يخطبها احد ، لان الناس قد تسامعوا بأنها خطب لابن عمها
منذ الصبا · لم يكن يجرؤ على ان يعرض لهذا الحديث فقد
كان يعلم علم ابنه · ولم يكن خالد يجرؤ على أن يعرض لهذا
الحديث فقد كان الحياء يمنعه من ذلك ، وكان سالم يمرح بين
المدينتين وربما أتيح له السفر الى القاهرة ، فكان مرحه فيها
أكثر تنوعا وابعد مدى · وكانت الفتاة تعمل وتعمل وتشقى
بالعمل ، لا يدرى احد اتفكر فى خطبها أم لا تفكر ، اتشقى
بهذا التفكير أم لا تشقى · ولكن المحقق انها كانت شـــقية
بقسوة خالتها التى كانت تزداد كلما تقدم بناتها نحو الشباب

ومن الحماقة الحمقاء والجهالة الجهلاء ان يحاول محـاول
احصاء الايام والليالى وهى تتتابع ويقفو بعضها اثر بعض ،
لا يدرى احد متى ابتدأت ، ولا يعلم احد متى تنتهى · واشد
من ذلك حمقا واعظم من ذلك جهلا ان يحاول محاول احصاء
الحوادث التى تقع فى هذه الايام المتتابعة والليالى المتناصية ،
فليس الى احصاء هذه الحوادث من سبيل حين تحدث لفـرد
واحد ، فكيف بها حين تحدث لاسرة كبيرة او صغيرة ! وكيف
بها حين تحدث لمدينة من المدن او اقليم من الاقاليم او جيل من
اجيال الناس ! فهى متنوعة كثيرة التنوع ، مختلفة عظيمـــة
الاختلاف ، يعظم بعضها ويجل خطره حتى يصبح له فى حياة
الفرد والجماعة ابعد الاثر · ويهون بعضها ويدق شأنه حتى
لا يحفل به حافل ولا يلتفت اليه ملتفت ، وهو مع ذلك خيط
مهما يكن دقيقا هين الشأن فله مكانه ذو الخطر فى هـــذا

النسيج الذى ينسجه مر الايام وكر الليالى والذى نسميه الحياة وقد فطن لذلك الذين يكتبون التاريخ ويسجلون الاخبار ، والذين يقصون القصص ويتحدثون بأنباء الماضى ،فقال قائلهم: عاش ما شاء الله ان يعيش ، وأقام ما اتاح الله له ان يقيم ·وقال قائلهم : مرى يا أيام وكرى يا ليالى ، فما اسرع ما يكبرابناء الاحاديث ! · وليس لهذا كله الا معنى واحد ، وهو ان محاولة احصاء الايام والليالى عبث ، ومحاولة احصاء ما يقع فيها من الحوادث والخطوب سخف ، فالخير ان نطوى من ذلك كله ما يجب ان يطوى ، والا نقف من ذلك كله الا عندما يستحق ان نقف عنده ونفكر فيه · ونحن مع ذلك لا نحسن تمييز اليوم ذى الخطر من اليوم الذى لا خطر فيه ،ولا التفريق بين الحادثة ذات الاثر البعيد والحادثة التى ليس لها اثرقريب او بعيد ، وانما نحن نقدر الايام والحوادث كما نستطيع وكما يصور لنا العقل والخيال · فأما تقديرها كما ينبغى ان تقدر ، وتصويرها كما يجب ان تصور ، فذلك شىء اكاد اعتقد انه ابعد منالا من ان يبلغه طمع الطامعين وطموح الطامحين · والشىء الذى استطيع ان اقرره وانا صادق عند نفسى سواء اصدقنى القارىء ام لم يصدقنى ، هو انى تتبعت حياة هذه الاسرة من قرب وفى كثير من العناية والدقة ، فرأيت كثيرا من الاحداث التى عرضت لها والخطوب التى ألمت بها خليقا أن تكتب فيه القصص وتنشأ فيه الكتب وتؤلف فيه الاسفار الطوال · واكبر الظن ان هذا ليس مقصورا على هذه الاسرة ، وانما هو شأن كثير من الاسر المصرية فى هذا العصر الخطير من حياة مصر ، حين اخذ القرن الماضى ينتهى واخذ القرن الحاضر يبتدىء ، واخذت الحياة المصرية تنتقل من طورها القديم الى طورها الجديد فى عنف هنا وفى رفق هناك · فى هذا الطور من اطوار الحياة المصرية اختلفت على اسر المدن والاقاليم خطوب ، لم يكد يحفل بها احد ، ولا يلتفت اليها

انسان ، وهى مع ذلك قد خلقت مصر خلقا جديدا وبدلتها من خمولها القديم نباهة ، ومن جمودها القديم نشاطا ، وما من شك · ان الذى اقصه من انباء هذه الاسرة - اسرة خالد - يمكن ان يقص مثله من انباء اسر اخرى كانت تتصل بها صلة الجوار او صلة المشاركة فى العمل وفيما كان العمل يترك فى حياتها من اثار · وأنا مع ذلك لا اقص من انباء هذه الاسرة الا أقلها وايسرها ، فقد كثر ابناؤها وبناتها ، واختلفت بهم وبهن نوب الايام ، وذهب كل واحد منهم مذهبه فى الحياة ، كما دفعت كل واحدة منهن الى طريقها التى رسمت لها من قبل ، لم ترسمها لنفسها ولم يرسمها لها ابوها ، وانما رسمها لها القضاء الذى ليس للانسان عليه سلطان · وحسبى ان اسجل ان الاعوام لم تكد تتقدم بهذه الاسرة فى موطنها الجديد حتى كان ابناؤها قد شبوا واستنفدوا ما كان يمكن ان تمنحه الاقاليم لشبابها من العلم والمعرفة فى ذلك الوقت ·فلم يكن بد من ان يرحلوا الى القاهرة حيث يطلب العلم ويلتمس الرقى ، وقد فعلوا · وهذه كلمة يسيرة تقال فى لحظة قصيرة ، وتكتب فى حيز ضيق جدا من الورق ، ولكن التفكير فيها ينحل الى الام لا تحصى ، ومتاعب لا تعد ، وجهود لا يكاد يتصورها العقل وعواطف منها ما يسر ويرضى ، ومنها ما يسوء ويؤذى · فلم يكن انتقال الابناء من الاقاليم البعيدة الى القاهرة فى اخر القرن الماضى وأول هذا القرن من السهولة واليسر كما هو فى هذه الايام ، وانما كان شيئا عسيرا كل العسر ، معقدا اعظم التعقيد · كان يحتاج الى كثير من النفقات فى اسكان هؤلاء الشباب فى المنازل التى تلائمهم ، وتمكنهم من العيش الذى يستطيعون ان يطمئنوا اليه ، وحمايتهم من الخطر الذى يمكن ان يتعرضوا له فى هذه المدينة التى كان اهل الاقاليم يرونها عالما غريبا مملوءا بما يعرض الشباب لاعظم الاخطار واشدها نكرا · وكان هذا كله يشغل نهار خالد وامرأته ، ويؤرق ليل

خالد وامرأته ، ويصرفهما عن كل شيء ، ويملأ رءوسهما بالخواطر المقلقة ، وقلوبهما بالعواطف المزعجة . وكان سليم يرثى لهما ويشمت بهما ، لا يخفى شماتته ولا يبخل برثائه. كان يحبهما ويعطف عليهما ، فكان يؤذيه ما يجدان من مشقة وجهد . وقد نهاهما منذ الزمان الاول عن هذا الطموح الذى لا يلائم بيئتهما ، وعن هذه الامال التى لا يقدران على تحقيقها ، كم نصح لهما بأن يدفعا ابناءهما الى المصانع ليتعلموا فيها ما يكسبون به القوت وما يعينون به ابويهم اذا تقدمت بهما السن . وكم قال لهما : ان المدارس لم تنشأ لابناء الفلاحين وأوساط الناس ، وانما انشئت لابناء الذوات من الترك والاغنياء من المصريين . فلم يسمعا ولم ينتصحا ، فهما الان يذوقان مرارة الغرور ، ويبلوان ثمر العناد . وأغرب من هذا أن شيطانا مريدا قد استقر فى بيت خالد ولزم اذنيه واذنى امرأته وجعل يوسوس لهما فى النهار الا يسمعا لنصيحة سليم واضرابه ، والا يقنعا لابنائهما بالشهادات اليسيرة والمناصب التى تنال بقليل من الجهد وتغل على اصحابها رواتب ضئيلة يراها اهل الاقليم شيئا عظيما وهى فى حقيقة الامر لا تقيم الاود ولا تحمى من الجوع ، فضلا عن ان تبيح لاصحابها ماهم اهل له من الترف وخفض العيش ، وكان هذا الشيطان المريد يقول لخالد وامرأته مصبحا وممسيا : انظرا الى رئيس المصلحة وقاضى المحكمة ومأمور المركز ، فأما احدهم فيعلم ابنه ليكون قاضيا . واما الاخر فيريد لابنه ان يكون مهندسا . واما الثالث فيطمع لابنه فى ان يكون طبيبا . فأى فرق بين ابنائكما وابناء هؤلاء الناس ؟! ان قاماتهم جميعا تعتدل فى السماء ، وليس أبناءهؤلاء الموظفين الكبار وحدهم هم الذين تعتدل قامتهم فى السماء على حين يمضى ابناؤكما على اربع . انهم جميعا قد سلكوا الى الحياة طريقا واحدة ، وسيسلكون بعد اعمار طوال الى الموت طريقا واحدة ، فما بالهم

يختلفون فى الطبقة ويتباينون فى المنزلة بين الحياة والموت ؟!
وكان هذا الشيطان المريد يقول لخالد وامرأته فيما كان يقول: انظرا الى رئيس المصلحة كيف يستكبر ويستعلى ، وكيف يثنى عطفه ويلوى جيده اذا تحدث الى مرءوسيه ومنهم خالد ! وانظرا الى امرأة هذا الرئيس كيف تدل وتتيه وتنظر من عل الى نساء الموظفين حين يسعين لزيارتها ! . وانظر الى أبناء هذا الرئيس انهم لا يستكبرون على ابنائكما ولا يستعلون ، كما يستكبر ابواهم ويستعليان ، لانهم قد ذهبوا الى كتاب واحد ثم الى مدرسة واحدة . فان امسكتما ابناءكما عندما حفظا من العلم وحصلا من الشهادات وقفوا هم وتقدماترابهم ، ثملاتمضى الاعوام حتى يكون ابناؤكما فى نفس منزلتكما ، وحتى يكون ابناء هؤلاء الموظفين لهم سادة وعليهم رؤساء ، ومع ذلك فقد كان ابناؤكما يتفوقون فى المدرسة على ابناء هؤلاء الموظفين ، وهم جديرون ان يتفوقوا عليهم فى المدارس الاخرى . وهم جديرون آخر الامر ان يسبقوهم ويظفروا بما لم يظفروا به من وسائل الفوز . فانظرا كيف تجدان انفسكما يوم يظفر أبناؤكما بالشهادة او المنصب ويقصر عن الشهادة او المنصب ابناء الرئيس والقاضى والمأمور ! . وكان هذا الكلام يقع فى قلب خالد وامرأته موقعا غريبا ، ينسيهما كل شيء ويدفعهما الى التضحية بكل شيء . فكان كل عام دراسى يشهد بيع شيء مما كانت الاسرة تعتز به وتحرص عليه ، فبيع البقر والجاموس والخيل شيئا فشيئا ، ثم بيع حلى « منى » شيئا فشيئاحتى أصبحت أعطل من الفقيرات من نساء المدينة . فلم تكن فى المدينة امرأة فقيرة الا ولها القرط من الذهب او الفضة تعلقه فى أذنيها ، او الخلخال من الفضة تديره حول ساقيها ، وقد كان لمنى من هذا الحلى انفسه واكرمه ، ولكنها جعلت تنزل عنه عاما بعد عام للمعلم جرجس هذا الذى كان يلم بالبيت اذا دعاه خالد فيأخذ الحلى فى يده ينظر اليه فيطيل النظر ، ثم

يزنه ثم يؤدى ثمنه الى خالد ، ويدفعه خالد الى بنيه ليؤدوا منه اجور التعليم • ثم اضطر خالد ان يقتصد فى زيه ، فقد كان يتخذ ثيابه من ازهى الحرير واجود الصوف ، ينفق فى ذلك مالا ينفق اصحابه مثله ، فاذا هو يزهد فى هذا كله ، ويتخذ ثيابه من القماش الابيض والصوف الرخيص • وليس هو وحده الذى يقتصدفامرأته وبناته يذهبن فىالاقتصاد مذهبه ويسرن سيرته ، فقد كان يجب ان يتعلم الابناء وان يعيشوا عيشة راضية •

ولم يكن امل فى ان يستعين خالد اباه ، فقد بعد العهد بثروة ابيه ، واصبح على شيخا فانيا ضريرا أعزب عيالا على ابنائه ، يرزقونه فى المدينة ويودون لو اقام عند كل واحد منهم جزءا من السنة ليعيش مع أهله كما يعيشون حتى لا يكلفهم نفقةخاصة ،ولكن عليا صمم علىان يبقىفىدارهليعيش فى غرفة أم خالد • وهو لا ينتقل من هذه الدار الا اذا اقبل الشتاء من كل عام ، فانه يحب ان ينفق الشتاء عند خالد حيث يجد من الدفء والراحة والخدمة مالا يجده فى داره ، ولكنه قد اخذ على خالد عهدا ان اصابته علة ان يرده الى داره والى غرفة ام خالد من هذه الدار ، لانه يريد ان يموت حيث ماتت زوجته الاولى • وليس امل فى ان يستعين خالد حماه الحاج مسعود، فقد عبث الحاج مسعود بالثروة ، وقد تعرضت تجارته لمثل ما تعرضت له تجارة على من هذا الخطر الذى جاءها من القاهرة على ايدى هؤلاء الشياطين الذين نظموا التجارة تنظيما حديثا ويسروها تيسيرا لا يقدر عليه الحاج مسعود وامثاله ، ولولا ان الحاج مسعود كان رجلا صالحا بأدق معانى الكلمة لتعرض من البؤس لمثل ما تعرض له على ، ولكنه ضبط نفسه وحزم امره وكف عن التجارة حين رأى ان المضى فيها خطر ، واكتفى بما كان عنده من مال ينفق منه على نفسه ويبر منه بناته واصهاره فى اعتدال ورفق ، ثم لزم شيخه اشد ما يكون

له لزوما ، حتى اذا مات الشيخ لم يلزم ابنه الحدث ، وانما اقعدته السن فى داره ، فكان يزور الشيخ الفتى بين حين وحين ولو قد بقيت على الحاج مسعود ثروته عريضة وتجارته نامية لما استعانه خالد على ما كان يلقى من الجهد فى تعليم بنيه • فقد كان خالد شديد الحياء ، وكانت امرأته أشد منه حياء ، وكان الزوجان يجدان لذة غريبة فى هـذا البؤس الذى كانا يضطران الاسرة اليه لتعليم ابنائهما • ومن الحق ان هؤلاء الابناء كانوا يكافئونهما احسن المكافأة على ما كانا يبذلان من جهد ويحتملان من ضنك ، فقد كانوا نابهين على الجملة •• وكانوا على كل حال ممتازين على اترابهم من شباب المدينة ، فكانوا ينجحون حين كان يخفق ابناء كبار الموظفين ، وقد ظفر احدهم بالشهادة الثانوية لم يرسب مرة واحدة ، على حين ان قرينه ابن المأمور الذى دخل معه المدرسة الثانوية فى عام واحد لم يزل فى السنة الاولى ، وقد كاد يفصل من المدرسة لولا ان أباه استعان ببعض اصحاب الجاه • فكان المأمور وكبار الموظفين يحسدون خالدا ، لا يكادون يخفون هذا الحسد • وكان خالد وامرأته يجدان هذا الحسد لذة منكرة لا يكادان يخفيانها • وكان خالد يتقى هذا الحسد بقراءة القرآن والالحاح فى الدعاء ، كما كانت « منى » تتقى هذا الحسد بالبخور وبهذه الادعية التى لا يعرف امتجهة الى الله ام الى الشيطان • وكان الشباب يضحكون من هذا كله ويعبثون من امهم وابيهم جميعا • وفى اثناء هذا كله كان بنات « منى » ينمون ويتقدمن نحو الشباب حسانا رائعات • وكان الابناء يتتابعون لا يكاد يدرج واحد منهم حتى يتبعه اخر • وجلنار هى القائمة على امر هذه الدار بارشاد خالتها وبتعنيف خالتها ايضا • وقد كثر العمل على جلنار ، فالصبية كثيرون ، وشئون الدار لم يقل تعقيدها ، ولكن قل فيها الخدم ، فلم يكن بد من الاقتصاد •

وكان العمل يثقل على جلنار بنوع خاص اثناء الصيف وفي اجازات الاعياد حين يقبل هؤلاء الشباب فيملئون البيت حركة ونشاطا . والغريب ان احدا من هؤلاء الشباب لم يخطر له ان حال الاسرة قد تغيرت ، وان ثراءها قد ذهب ، وان مالها قدقل ومع انهم كانوا يرون الدار خالية مما كان فيها من الحيوان ، ومع انهم كانوا يرون أن أثاث الداريبلى شيئا فشيئا دون أن يجدد ، ومع انهم كانوا يرون امهم عاطلا لم يبق لها خاتم تدبره حول اصبعها ، فقد كانوا مطمئنين الى ان اباهم قادر على كل شيء ، وكانوا واثقين بانهم سيجدون فى الدار ما تعـــودوا ان يجدوا من السعة والرخاء . والشيء المهم هو ان جلنار كانت تنهض بخدمتهم لا تكل ، تستيقظ مع الفجر قبل ان يستيقظوا وتنام عند منتصف الليل بعد ان يناموا ، لا تفتر عن العمل ساعة ، ولا تذوق الراحة لحظة ، وهى بذلك سعيدة واليـه مطمئنة ، لولا ما كانت تلقى من تعنيف خالتها الذى لم يكن ينقطع ،ولولاما كان يوجه اليها هؤلاء الشباب الاشرار الجاحدون للجميل من مزاح لا يخلو مما يؤلم ، ولولا ان سالما كان ينتهز هذه الفرصة فيزور الاسرة ويطيل الاقامة فيها ، ويكون اشد أترابه رغبة فى الدعاء والرخاء وحاجة الى الخدمة ، وأطولهم لسانا بما يسوء . وكان احب اوقات جلنار اليها واثرها عندها هذه اللحظات القصار التى كانت تقدم فيها القهوة الى ابيهامع الصبح وخالتها نائمة لم تنهض بعد ، فكانت تقف بين يدى ابيها وهو يأكل كسرة الخبز المجففة يغمسها فى الملح ويشرب فنجانيه من القهوة السادة ، ويتحدث الى ابنته حديثا هادئا عن اخوتها كيف انفقوا امسهم وكيف يريدون ان ينفقوا يومهم ، وماذا يجب ان تعد لغدائهم او عشائهم من طعام . وكانت تحب ايضا هذه اللحظات القصار التى كانت تصب فيهن الماء لابيها اثناء وضوئه اذا نهض من نومه بعد الغداء ، حتى اذا اسبغ وضوءه تركته يصلى العصر ، ثم عادت اليه بفنجانيه من القهوة ، فأخذ

يشربهما مستانيا ، ويداعبها حول ما اعدت من طعام ، يمدح هذا اللون ويعيب ذاك ، والفتاة ترد على ابيها مداعبة ، ترق له حينا وتعنف به حينا اخر ، ويبلغ بها العنف ان تشبه اباها بالقطط التى تأكل ثم لا تتحرج من ان تنال مطعمها بالمخالب ، وكان ابوها يسمع منها ويضحك لها وينصرف وفى قلبه كثير من حنان ، وعلى لسانه شيء من دعاء لا يسمعه الا الله ، لانه كان يخشى أن يسمعه أحد من أبناء الاسرة ، فقد استقر فى الاسرة كلها ان جلنار حمقاء ورهاء ، لاتقدر على خير ، ولاتستحق خيرا . وكانت جلنار تجد شيئا من الراحة والروح حين تقدم الى امها قهوة الصباح بعد ان ينصرف ابواها وقبل ان تنهض خالتها ، فتلقى الى امهـــا كلمات سريعة كأنمـــا تخطفهن خطفـــا ، وتلقى اليهـا أمها كلمـــات سريعـــة كأنمـــا تختلسهن اختلاسا . ثم يفرق العمل بين الام وابنتها ، فالفتاة مضطربة فى البيت لا تستقر كأنها خذروف الوليد ، وأمهـا مقبلة على ما كانت موكلة به منذ عاد اليها بعض رشـدها من الحياطة واصلاح ما كان الشباب والصبية يمزقون من الثياب

وكذلك مضت حياة الاسرة أعواما وأعواما حتى اكتهـــل الشاب وشب الصبى وصبح البنات للزواج ، واختلف أصغر الابناء الى المدارس يسيرون على آثار اخوتهم الكبار . وخـــالد الشيخ سعيد بما يرى من تقدم بنيه واستقلال من يستقل منهم شقى بما يرى من اعراضهم عنه وازورار أكثرهم عليه ، باذل على ذلك فى شيخوخته مثل ما كان يبذل فى شبابه من جهد ليعين من يحتاج من أبنائه الى العون وليبر أبناءه الاخرين ، وقد كانوا خليقين ان يعينوه ويبروه . وكان خالد وامرأته يتحدثان ببر الابناء وعقوقهم ، فيفرحان بأبنائهما ويحتسبان عند الله ما بذلا فى تربيتهم وتعليمهم من جهد . وكان خالد يختم هذا الحديث دائما بهذه الجملة : لن أترك لابنائى ثروة

ولو شئت لتركت لهم مالا كثيرا،ولكنى ساتركهم غير محتاجين الى ميراث ، ولعلهم يستطيعون أن يؤدوا الى أبنائهم مثل ما أديت اليهم من المعروف • وكانت جلنار تسمع هذه الجملـــة فتقع من قلبها موقعا غريبا ، فيه عطف على أبيها ، وفيه عتب عليه أيضا • انه لم يترك لابنائه ميراثا ، لانهم أغنياء عن الميراث ولكنه لم يترك لبناته ميراثا وهى لسن غنيات عن الميراث ،ولا سيما من لم تجد منهن زوجا •

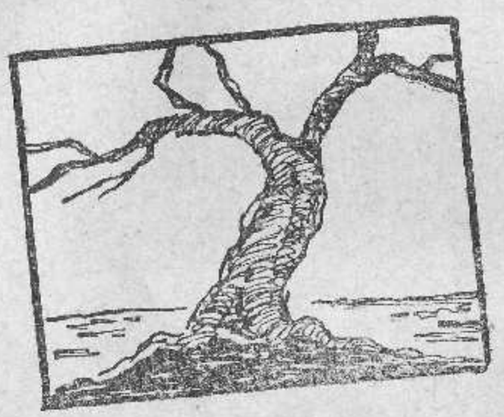

وفى ذات صيف كانت الاسرة كلها مجتمعة ، وكان الامر فى الدار قائما على قدم وساق كما يقال فقد تعمد أبنـاء الاسرة جميعا أن يلتقوا عند أبويهم ،فكان منهم الكهل معه زوجه وبنوه والشاب معه زوجه التى لم تلد بعد ، والشاب الاخر الذى لما يتزوج ، والفتى الذى لما يتم الدرس والصبى الذى لم ينـل شهادته الابتدائية • وكانت الاسرة كأحسن ما تكون الاسر فرحا ومرحا • وكان خالد الشيخ كأحسن ما يكون الشيوخ الآباء غبطة وابتهاجا ، أحب أوقاته اليه أن يجلس الى المائدة وحوله هذه القبيلة الضخمة من الابناء والحفدة وهم يتحدثون فى صيحة وجلبة لا يكاد بعضهم يسمع حديث بعض • وأمهم

قائمة على رأس المائدة تشرف على غدائهم أو عشائهم ، توصى هذا بهذا اللون من الطعام ، وتنبه ذاك الى هذا اللون الذى كان يحبه صبيا ، وتحث المقصر فى الاكل عـــلى أن يأكل ، وتحمس الفاتر على أن ينشط • وجلنار ذاهبة جائية ومعهـــا أخواتها والخدم يطوفن بالصحاف ، ويصببن الماء فى الاقداح، ويلتقطن من الاحاديث والنكت ما يستطعن ، يدخـــرنه لتلك الساعة التى يجتمع فيها النساء الى المائدة فيعدنه متندرات به مستمتعات بما يثير فى نفوسهن من لذة وابتهاج •

وأيام الاسرة تمضى فى هذا الصيف السعيد على خير مايحب خالد وامرأته • والناس يتحدثون فى المدينة بهـــذه الاسرة الضخمة ، وبهذا النشاط الشديد الذى يذيعه أبنـــاؤها فى المدينة كلها ، فلا يبقى فيها بيت ذو خطر الا دعا كهول الاسرة وشبابها الى غداء أو عشاء • ولم تجد الاسرة بدا من أن تلقى الجميل بالجميل وترد التحية بمثلها أو بأحسن منها •فالولائم متصلة فى المدينة ، يوما هنا ويوما هناك • وأبناء الاسرة هم مصدر هذا النشاط وسبب هذا الرخاء • ولكن رسالة برقية تصل الى الاسرة فتحدث فيها شيئا من رضا يماجزه شيء من عجب ، فقد حملت هذه الرسالة الى خالد أن صديقه وأخـــاه سليما سيزور الاسرة من غد ،وسيصحبه فى هذه الزيارة ابنه سالم • أما الشباب فيسرون لمقدم سالم هذا الفتى المرح الذى سيزيد اقامتهم بشر وسرورا • وأما خالد فيسر لانه ســـيرى أخاه ، ولانه سيرى أبناءه سعداء مبتهجين • ولكن خالدا يسأل نفسه : ما بال سليم يصطحب ابنه ؟ والشباب يتساءلون : ما بال سالم يصحب أباه ؟ ثم هم يتساءلون : ما بال هـــذه الزيارة ينبىء بها البرق ولا تتم مفاجأة كما جرت عادة سالم وسليم ؟ فأما « منى » فلم تسأل نفسها عن شيء ولم تجب عما كان يلقى حولها من الاسئلة بشيء ، وانما ظلت هادئة باسمة

فى وجهها شيء من غموض • ثم يكون الغد ويقبل الزائران ، ولكنهما كما تعودا أن يقبلا ، معهما أمتعتهما اليسيرة وبعض ما تعودا أن يحملا من الطرف والهدايا اليسيرة أيضا ، وانمـــا يقبلان هذه المرة ومن حولهما ما يحتاج الى حمالين كثيرين وما يعيا بحمله هؤلاء الحمالون ، فألوان مختلفـــة من الفاكهة ، وضروب مختلفة من الطعام المصنوع ، ثم الارز والسكر والبن وأشياء أخرى لا تكاد تحصى • فأما الشباب فيدهشـــون ولا يقولون شيئا ، وانما ينصرفون الى سالم يفرحون به ويمرحون معه • وأما خالد فيقول لاخيه : وماذا تركت لاهل المدينة وقد حملت ما كان فى سوقها من عروض ؟ ، وأما « منى » فلا تقول شيئا ، ولكنها تتلقى هذه الهدايا فرحة بها مبتهجة لها أكثر مما تعودت أن تفرح بالهدايا أو تبتهج ، وابتسامتها كما هى وصمتها باق كما هو ، والغموض فى وجهها باق كما هو •

وأما البنات فلا يحفلن بذلك ولا يكـــدن يلتفتن اليه ، فهن مشغولات بما فى الدار من نشاط وبما تحتاج اليه الدار من خدمة الا جلنار فانها قد حدثت نفسها بشيء وساءلت نفسهاعن شيء : أيمكن أن يكون سالم وأبوه قد ذكرا تلك الخطبةالقديمة وفكرا فىهذا الزواج المنتظر ؟ ولكنها لاتجيب على هذا السؤال وانما تترك نفسها معلقة مضطربة ، يدفعها الشك الى هنـــا وهناك ، وهى تألم لهذا الشك الثقيل • ويمضى يوم ويـــوم والاسرة فيما هى فيه من حياة فرحة مرحة ، يزيدها فرحـــا ومرحا نشاط سالم ودعابة سليم •

ولكن الاخوين يخلوان ساعة بعد الغداء من اليوم الثالثوقد أحس الشباب أن لهذه الخلوة ما بعدها • ولم يلتفت اليها بنات « منى » • وأكبر الظن أن منى نفسها قد كانت فى غرفةمجاورة تتسمع لما يقول الاخوان ، أو تنتظر أن يصل اليها بعض ما يقول الاخوان • وأما جلنار فقد لاحظت هذه الخلوة وابتسمت

لها ابتسامة غامضة ، ومضت فيما كانت فيه من عمل ، ولم يعرف قلبها قط من الخوف والرجاء مثل ما عـــرف فى تلك الساعة • ثم يفترق الاخوان ، يذهب كل منهما الى مضجعه ليستريح بعد الغداء • فأما خالد فقد خلا الى زوجه • وأماسليم فقد خلا الى ابنه • والشباب يتساءلون متضاحكين ، وجلنـار تسائل نفسها فزعة هلعة دون ان يفطن أحد لما تضـطرب به نفسها من فزع وهلع •

فاذا صليت العصر كان وجه « منى » ممتلئا بشرا ، وكانت جلنار أول من لحظ ذلك ، فلم يزدها الا فرقا وقلقا • ولكن خالدا يدعو اليه الكبار من أبنائه ويتحدث اليهم حديثا يلقونه بثورة لا يكادون يخفونها • فقد جاء سليم خاطبا يريدان يزوج ابنه ، ولكنه لا يخطب جلنار ، وانما يخطب تفيدة كبرى بنات « منى » • وخالد حائر فى أمره لا يدرى كيف يرد على أخيه قوله : أيقبل هذه الخطبة فيضحى بجلنار البائسة ، أم يرفض هذه الخطبة فيؤذى أخاه وهو لم يتعود قط ان يرد لاخيـــه طلبا ؟ وقد عرض الامر على زوجه فلم تنكر منه شيئا • ومعنى ذلك أنه ان رفض فلن يؤذى أخاه وحده بل سيؤذى معه زوجه منى ، وسيؤذى معهما سالما •

فأما الشباب فلم يفكروا فى شىء من هذا ، وانما اجتمعت كلمتهم على الرفض وعلى أن فى هذه الخطبة الجديدة قحة لا تبلغها قحة ، وسماجة لا تشبهها سماجة • ثم أخذ الشـــباب يتضاحكون ويتندرون بعمهم وابن عمهم وبهذه الهدايا الكثيرة التى لم يتعودا أن يحملا مثلها • ولم تصل المغرب حتى كانت الاسرة كلها قد عرفت نبأ الخطبة ، وحتى كان الفساد قدشمل أخلاق الشباب والشيوخ والصبيان جميعا • وكأن سحابة كثيفة من الغم قد أظلت هذه الدار التى كانت فرحة مبتهجة منذ حين فملأتها حزنا وبؤسا • فأما الشبان فقدتفرقوا فى أنحاء المدينة

يلتمسون الرياضة ويخلو بعضهم الى بعض • وأما الصبية فقد عشتهم أختهم جلنار فأكل منهم من أكل وأعرض منهم من أعرض عن الطعام ، واضطروا آخر الامر الى مضاجعهم • وأما بنات « منى » فقد لذن بأمهن صامتات مثلها ، باسمات مثلها ، غامضات مثلها أيضا • وأما جلنار فقامت على خدمة الدار كما تعودت ، وهيأت للرجال طعامهم • فلما لم يفربه أحد منهم دعت النســـاء الى طعامهن ، فلما امتنعن رفعت كتفيها وهزت رأسهـا وأصابت قليلا من طعام وجلست مكانها مع النساء صامتة تنتظر أن يأوى الرجال الى مضاجعهم لتدور فى البيت دورتها المألوفة ، فتثق بأن الابواب مغلقة ، وبأن كل شىء مستقر فى موضعه الذى يجب أن يستقر فيه • فأما قلبها فقد كان حزينا ، ولكن عهده بالحزن قديم • وأما نفسها فقد كانت يائسة ، ولكن السبب الذى كان بين نفسها وبين الامل قد كان واهيا واهنا ، حتى اذا انقطع لم تكد تحس له انقطاعا •

وهم خالد فيما أقبل من الايام أن يرضى أخـــاه ويضحى بابنته الكبرى ، ويكره أبناءه على ما لا يحبون ، فهو صاحب الحق آخر الامر فى أن يرفض او يقبل • ولكنه وجد من بنيه مقاومة لم يعهدها من قبل ، فهم قد أقبلوا على حقائبهم يهيئونها وهم يتحدثون بالقطر التى سيركبونها ليعـــود كل منهم الى موطنه الذى يعمل فيه • وهم يؤذنون الاسرة بأن الصلة بينهم وبينها مقطوعة ان قبلت هذه الخطبة الوقحة • وخالد يلجأ مع أخيه الى رئيس المصلحة يستعينان به على هؤلاء الشباب الذين أفسدهم التعليم ، وأضاعت الحياة الحديثة من نفوسهم كل حياء ، فهم يدخلون فيما لا يعنيهم ، ويخالفون عن أمر أبيهم ويتوسط الرئيس فيدعو اليه شباب الاسرة ، فيمتنع أكثرهم ويذهب أقلهم ، ثم يعودون كما ذهبوا وقد امتنعوا على الرئيس كما امتنعوا على أبيهم • وهنا بدأت دموع « منى » تسيـــل

ولكنها لم تبلغ من قلوب أبنائها شيئا •

واضطر سليم أن يعود أدراجه ومعه ابنه ، وقد هم الشباب أن يبالغوا فى مساءته فيردوا عليه ما حمله ن الهدايا ، لولا بقية من رشد وفضل من وقار • وقد انقضت أجازة الصيف حزينة بعد مرح ، عابسة بعد ابتسام • وتفرق الشباب عن أبويهم وانصرفوا الى أعمالهم وقد استوثقوا أنهم كسبوا الموقعة ولكن كتب أبيهم تصل اليهم بعد أشهر تحمل اليهم هذا النبأ الاليم ، فقد تم الزواج ، فزوجت تفيدة من سالم ، وزوجت جلنار من على • وكانت هذه هى الحيلة التى اهتدى اليهـا سليم للخروج من هذه المشكلة • ان الشباب يأبون ان تزوج أختهم الصغرى وتترك أختهم الكبرى • فلنزوج الاختين • وما دام سالم يحب تفيدة ويخطبها فليزوج من تفيدة • فأما جلنار فان عليا لا يكره أن يتزوجها اذا ألح أبوه عليه فى ذلك وقد اطمأنت « منى » ورضى خالد وتم عقد الزواج ، لم تستشر فيه تفيدة ولم تسأل فيه جلنار ، وانما أجريت هذه الصـورة المألوفة فكان خالد وكيل ابنتيه ، وكان سليم وكيل ابنيه • وانتهت أنباء ذلك الى الشباب متفرقين فلم يصنعوا شيئا ، لانهم لم يكونوا يستطيعون أن يصنعوا شيئا • ولكن قائلهـم قال : أقسم ما هذه الا حيلة ولتزفن تفيدة الى سالم ولتطلقن جلنار قبل الزفاف • وأقسم الشباب لا يحضرون من أمر هذا الزواج شيئا •

ومضت أشهر وجاءت اجازة الصيف ، فلم ينعم خالدوامرأته بزيارة أبنائهما • وقد تحقق ما قدر الشباب ، فزفت تفيـدة الى سالم ، وأقبل كتاب ذات يوم يحمل الى خالد وثيقة الطلاق لجلنار •

وفى الانسان خصال بغيضة لم تستطع الحضارة تهذيبها ، بل ليس أحد يدرى أخلقت معه فعجزت الحضارة عن اصلاحها

أم خلق الانسان مبرأمنها ثم كسبته الحضارة اياها بما فرضت عليه من ظروف مرتبكة مشتبكة ، وبما امتحنته به من خطوب متسابقة متلاحقة ، ولكنها مركبة فيه على كل حال، تفسد عليه أمره ، وتضطره الى كثير من البغى ، وتورطه فى كثير من الاثم فلست أعرف أقسى منه اذا أبطرته النعمة ، ولا أغبى منه اذا ازدهاه الغرور ، ولا أجهل منه اذا سيطرت عليه الاثرة ، ولا أغفل منه اذا أحس خطرا قريبا أو بعيدا عـلى ما يختص به نفسه من الخير • وأكبر الظن أن كل هذه الخصال مجتمعة هى التى دفعت « منى » الى أن تتشدد فى أن تزف تفيدة الى سالم أو يزف سالم الى تفيدة فى دارالاسرة ، وفى أن يجد خالد لختنه عملا فى نفس المصلحة التى يعمل فيها ، بحيث لا تفارق ابنتها ، وبحيث تستطيع أن ترى ختنها الاثير عنـدها فى الصباح والمساء من كل يوم • وقد نسيت منى أن أمها حاولت شيئا مثل ذلك فكانت هى أشد الممانعين فيه ، وتركت الامرالى زوجها ، ولم تحفل بما أظهرت أمها أو أضمرت من حزن ،ولم تأبه لما سفحت أمها وأمسكت من دموع• نسيت ذلك ولم تذكر الا شيئا واحدا ، وهو أنها لا تريد ان تفارق ابنتها فلا ينبغى لاحد أن يفرق بينها وبين ابنتها مهما تكن الاحـوال • ومن يدرى ! لعل عواطف خفية أثيمة كانت تعبث بهذا القلب الكريم فتجرده مما عرف به من رحمة ، وبهذا العقل النافذ فتحرمه ما قدر له من ذكاء ، فقد انتصرت على زوجها وبنيها وضرتها التى لم تحارب قليلا ولا كثيرا ، وينبغى أن تستغل انتصارها الى أقصى غاياته وأبعد آماده ، وأن ترى ابنتها مقيمة فى دارها سعيدة بحبها ، مستأثرة بهذه الزواج الذى لم تكن تنتظره ، والذى كانت الاسرة قد أعدته لغيرها ، ولم يخطر لمنى أن فى الدار فتاة خليقة أن يؤذيها هذا الجوار البغيض وان يمزق قلبها تمزيقا ويحرقه تحريقا ، وأن فوزها الاول خليق أن

يحملها على شيء من رحمة ورفق ، فتجنب هذه البائسة رؤية هذا الفتى الذى انتظرت أعواما وأعواما أن يكون لها زوجا ، والذى عقدت به آمالا وآمالا ، ثم نظرت ذات يـــوم فاذا هى تجزى من هذا الانتظار الطويل والصبر المتصـــــل بالهجران والحرمان ، ثم بهذه الاهانة التى لا تطيق المرأة صبرا عليها ، وهى هذا الزواج الصورى الذى لم يرد به حتى خداعها هى أو تضليلها ، فلم يحفل أحد حتى بخداعها وتضليلها ، وانما أريد به خداع أولئك المعارضين من اخوتها ، ليتم هذا الزواج الذى هو الى الغضب والعدوان أقرب منه الى أى شيء آخر .

لم يخطر هذا لمنى ، بل لعله خطر لها فكان دافعا على الالحاح فى أن تقيم ابنتها معها فى الدار .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل أخذت جلنار تعمل فى الدار كما كانت تعمل . وكان من بين عملها بطبيعة الحال أن تمضى فى خدمة أختها متزوجة بعد أن كانت تخدمها قبل الزواج أن تمضى فى خدمة هذا النزيل الجديد بعد أن تحول عنها قلبه وبعد أن أهدى اليها هذه الخيانة البشعة ، كما كانت تخدمه من قبل حين كانت ترجو حبه ، وحين استيأست من حبه ، ولكنها لم تكن تنتظر أن تنتهى به القسوة الى الخيانة . ويجب أن نعترف بأن جلنار مضت فى حياتها وفى عملها كما كانت تمضى من قبل لم يظهر أحد من الاسرة على أنها محزونة أو يائسة ، اما لانها لم تظهر حزنا ولا يأسا ، واما لان الاسرة لم ترد أو لم تستطع ان ترى عليها مظاهر الحزن واليأس .

انما هى امرأة واحدة لم تستطع ان تقيم فى الدار ، ولا أن تحتمل هذا البؤس الاليم ، وهى نفيسة التى طلبت فى حياء يمازجه الذهول أن تزور ابنتها سميحة ، وودت لو أذن لجلنار فى صحبتها . ولكن « منى » أجابتها فى قسوة هـــادئة : تستطيعين أن تزورى ابنتك ان شئت ، فأما جلنار فلن تستغنى

عنها الدار فى هذه الايام .

وقد آثرت الام البائسة ان تفارق ابنتها على أن تراها فى هذا العذاب البغيض . وكذلك خلت الدار حتى من هذا الشعاع الضئيل الذى كان ينفذ الى قلب الفتاة من حنان أمها البائسة ، فيشيع فيه شيئا من الطمأنينة والراحة ، ولم يبق لها الا وجه أبيها الذى كان يبتسم لها على استحياء ، لانه كان يقدر بؤسها فى أعماق ضميره ، ويقدر قسوته عليها وتقصيره فى ذاتها . ولكنه لم يكن يستطيع أن يظهر لها أو لغيرها من ذلك شيئا ، فاتخذه سرا بينه وبين الله ، يستغفر الله منه ويستعينه على احتماله ان استطاع أن يخلو الى نفسه ، وما أقل ما كـــان يستطيع ان يخلو الى نفسه ! .

وأقبل مع ذلك ذات يوم شيخ متقدم فى السن من أصدقاء خالد يكاد يكون ترباً له ، وكان هذا الشيخ قد فقد أهله منذ حين . أقبل الى خالد ذات يوم يخطب جلنار ، ولم يدر أحد أدفعته الرحمة الى هذه الخطبة أم دفعته اليها الحاجة الى من يؤنس وحدته ، أم دفعه حرصه على أن تزداد الصلة بينه وبين صديقه متانة وتوثيقا ، ولكنه خطب الفتاة الى أبيها على كل حال . ووجد خالد فى هذه الخطبة روحا من الله يخفف عنه بعض ندمه ويغسل عن نفسه بعض ما علق بها من الاثم والحوب فوعد صديقه خيرا على أن يشاور ابنته . ثم خلا الى الفتاة بعد أن آذن زوجه بالامر فأبأها بهذه الخطبة فى صـــوت هادىء لا يخلو من اضطراب ، وفى ابتسامة متكلفة . تخلو من حزن . ولكن الفتاة استمعت له مطرقة ، ثم أجابته دون أن ترفع رسها اليه قائلة : ليس لى فى الزواج أرب ، وما أحب أن أفارق هذه الدار . فلما أراد أبوها أن يحاورها فى ذلك رفعت اليه رأسها باسمة فى صوتها الذى لم يخل من عنف: ومن ذا الذى يقدم اليك وضوءك وقهوتك فى الصباح والمساء؟ ثم تولت عنه معرضة وقد استيقن انه لن يظفر منها بشيء .

فلما أعاد حديثها على زوجه قالت « منى » فى صوت ساخر بعض الشىء : ان شجرة البؤس ما زالت تؤتى ثمارها • قال خالد ولم يستطع أن يخفى عبوس وجهه : فعسى الله ألا تذوقى أنت ولا بناتك بعض هذه الثمار ! ولكن الله لم يستجب لخالد دعاءه هذه المرة ،فقد لقيت تفيدة من زوجهاما لقيت ،وابتأست فى حياتها ما ابتأست •

ورأى الضحى ذات يوم بعد حين من الدهر نسوة مجتمعات يبكين أو يتباكين ، وما أكثر دعاء النساء لدموعهن ! وما أيسر ما تستجيب الدموع لهن اذا دعونها ! رأى الضحى ذات يوم هؤلاء النسوة مجتمعات يبكينأو يتباكين ، ولم تكن فيهن الا أيم أو مطلقة • ولم يكن هؤلاء النسوة الا « منى » قد تقدمت بها السن والارامل من بناتها ومعهن جلنار كما عرفها الضحى من كل يوم منذ حملت الى هذه الدار • فلما فرغ هؤلاء النسوة من بكائهن أو تباكيهن وأقلعت دموعهن بعض الاقلاع ، أخذن يتذاكرن آمالهن الضائعة وآلامهن المؤلمة ، وما كتب عليهن من الشقاء والبؤس • انهن لم يلقين من الدهر قط رحمة او روحا• تقول« منى» لتفيدة : : والله ما جر عليك آلامك ، وهذا البؤس المتصل الذى أنت فيه الا الحسد والغيرة ، فقد زفت الى زوجك وان فى هذه الدار لقلبا يكاد الحسد يهلكه • قالت تفيدة فى شىء من غضب : والله يا أماه ما أدرى ! لعلى أكون قد جنيت على نفسى حين أخذت ما ليس لى بحق • وتسمع جلنار فلا تقول شيئا ، وقد تعودت منذ أعوام طويلة ان تسمع كثيرا ولا تقول شيئا ، ولكنها تنهض بعد حين متثاقلة ، فتذهب الى حجرتها فتلزمها أياما ، ثم لا تخرج منها الا الى جوار أبيها فى تلك الدار التى لا يعرف أهلها تحاسدا ولا تباغضا ولا تعاديا ، والتى لا لغو فيها ولا تأثيم •

بيت مرى أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٤٤

الكتاب الذهبى

العدد الثالث عشر ـ يونيه ١٩٥٣

يصدره نادى القصة

عن دار روز اليوسف

١٨ شارع محمد سعيد

تليفون : ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨

الاشتراكات :

مصر ١٢٠ قرشا عن سنة ـ ٦٠ قرشا عن نصف سنة •

الخارج ١٨٠ قرشا عن سنة ـ ٩٠قرشا عن نصف سنة •

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

رئيس التحرير المسئول : سعد الكفراوى خليل

الكتاب الذهبى

النظارة السوداء ـ واسلاماه ـ يوم الثلاثاء ـ سرالشاطىء

جاء الخريف ـ خان الخليلى ـ وراء الستار ـ بعد الغروب ـ

شجرة الحكم ـ أزهار الشوك ـ شفاه غليظة •

تطلب من دار « روز اليوسف » ١٨ شارع محمد سعيد

(تليفون : ٢٠٨٨٨)

ومن مكتبة الخانجى بشارع عبد العزيز (تليفون : ٤٣١٤٨)

نادى القصة

توفيق الحكيم .. محمد فريد ابو حديد .. احسان عبد القدوس .. بنت الشاطىء .. محمد عبد الحليم عبد الله .. امين يوسف غراب .. على احمد باكثير .. نجيب محفوظ .. عبد الحميد السحار .. محمود تيمور .. يوسف السباعى .

يقـــدم

الدكتور سعيد عبده

- فى -

هياكل فى الريف

الكتاب الذهبى العدد الرابع عشر

يصدر فى يوليو - الثمن ١٠ قروش

حديث الشهر

صانعو الدمى وخالقو الاحياء

الذين يطلبون من الكاتب - او الفنان بصفة عامة - ان يكون عمله حسب خطة موضوعة مرسومة لا يحيد عنها وان يركز كل جهوده فى نطاق مخصوص محدد .. لتحقيق هدف معين .. هم مخطئون .. مهما بلغت قيمة الهدف الذى يحاولون ان يقيدوا الفنان به .

ان عملية الانتاج اشبه بالولادة .. ونحن لا نستطيع ان نأتى لصاحب الذرية ونطلب منه أن ينتج لنا ذرية باوصاف معينة لكى تخرج الى الحياة وتفعل كذا وكذا . لانه لا يملك التحكم فى ذريته فهى تخرج الينا متأثرة بطبعه وتكوينه وكيانه دون ان يقصد هو .. كذلك الكاتب . ينتج لنا كتبه او اولاده او خلاصة نفسه .. ويخرجها الى الحياة قطعة منه ومن انفعالاته ومشاعره وتأثره بكل ما احاط به فى ظروفه المختلفة .. دون ان يصطنعها او يحددها او يقيدها لتلائم مطالب خاصة ان هذا الانتاج سينطلق بين الناس ليحقق كل هدفه ويؤدى رسالته انطلاقا طبيعيا غير مفتعل ولا مصطنع ولا موجه .. انطلاقا حيا قويا ..

اما الذى يطلبونه من الفنان .. فلا يفعله الا غير الفنان .. ان الذى يطلبونه من انتاج مرسوم حسب خطة موضوعة لتلائم اغراضا خاصة .. اشبه بانتاج الدمى والعرائس التى يتحكم صانعها فى طريقة صنعها . لتأتى الينا بالضبط كما نريد .. لا ينقصها الا الروح ..

ويبدو لنا ان الروح فى نظرهم لا قيمة لها . كما يبدو كذلك انهم لا يفرقون بين صانعى الدمى وخالقى الاحياء ..

« يوسف السباعى »